

الكتاب الأول
فجر مصر الإسلامية
أو
عصر الولاية

obeikandi.com

المدخل

الفتح العربي لمصر :

(أ) عمرو بن العاص، كيف فكر في فتح مصر وكيف سار إليها ؟

(ب) حواث الفتح .

obeikandi.com

(أ) عمرو بن العاص

كيف فكر في فتح مصر وكيف سار إليها؟

كان عمرو أحد القواد الذين يعملون لفتح الشام ، وقد اختص بفتح الجزء الجنوبي وهو فلسطين ، ولما تم للعرب فتح بيت المقدس أبى بطريقها (صفرونيوس) أن يسلم مفاتيح المدينة إلا للخليفة عمر نفسه ، فرحل عمر قاصداً الشام في بساطة العربي يتبادل الركوب وخادمه على ناقة واحدة .

ويقول بتلر^(١) : ولعل عمراً قد أفضى إلى عمر برأيه في فتح مصر منذ كان في بيت المقدس ، ولكن الخليفة رأى أن وقت ذلك الفتح لم يحن بعد ، فلما ظهر العرب ، وانتهت الحرب أو كادت عاد عمرو إلى عرض رأيه .

وكان عمرو بن العاص - شأن سراة العرب جميعاً - يشتغل بالتجارة قبل ظهور الإسلام ، ويتردد بها على بلاد الحبشة واليمن جنوباً ، وبلاد الشام ومصر شمالاً ، يقول الكندي :

(إن عمرو بن العاص كان يختلف بتجارته إلى مصر وهي الأدم والعطر^(٢) .

وقد اختلط عمرو في هذه البلاد بطبقات الناس المختلفة ، فالتاجر أكثر الناس اتصالاً ومعرفة بأخبار البلد التي يعمل فيها أو يرحل إليها .

درس عمرو أحوال هذه البلاد التي زارها ، وقارن بينها ، وأدرك بفطرته أن مصر ترجحها جميعاً . فهي أغنى بخيراتها ، وأرقى بفنها وصناعاتها ، ولكنه سمع - ولا شك - من سكان مصر شكواهم التي تدل على كره شديد لحكم الرومان وظلمهم . ولعله لمس بنفسه بعض آيات هذا الظلم والاضطهاد ، وبعض علامات هذا الكره والمقت .

نشأ عمرو تاجراً ، والتاجر يقدر دائماً كل شيء قدره ، ويعرف لكل شيء قيمته ، فلا يقبل على أمر إلا إذا كان من ورائه ربح وفير ، هكذا نظر عمر للإسلام بعد الهجرة بسبع أو ثمانى سنوات هذه النظرة ، فلما تقدم يبايع النبي - عليه السلام - قال له :
(يا رسول الله - إنى أبايعك على أن يغفر لى ما مضى من ذنبي) .

هذا هو الثمن الذى يريده عمرو مقابل إسلامه ، وإنه لكثير ، ولكن الرسول الذى كان يريد أن يعتز الإسلام بشجاعة عمرو ودهائه أرضاه بقوله :

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ، الترجمة العربية للأستاذ محمد فريد أبو حديد ، ص ١٧٢ .

(٢) الكندي . الولاة والقضاة ، ص ٧ .

(أسلم يا عمرو ، فإن الإسلام والهجرة يجبان ما كان قبلهما) .

وقد ولاة رسول الله بعد ذلك قيادة سرية ذات السلاسل ، وفيها أرسل يستمد الرسول ، فأمده بجند على قيادتهم أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وكانت الإمرة أثناء الحرب لعمر بن العاص .

وقد ولاة الرسول بعد هذه السرية على عمان ، فأقام والياً عليها حتى توفي النبي ﷺ ، وبعد وفاته بنحو سنتين اختاره أبو بكر قائداً مع القواد الذين سيرهم لفتح الشام - كما أسلفنا - فأبلى هناك بلاء حسناً ، وتم له فتح فلسطين قبل أن يتم لأقرانه فتح سوريا ، فأرسل إليهم بعدد ليساعدهم .

ولما فتح بيت المقدس وجاء عمر فتسلم مفاتيحها بنفسه . قيل إنه أسر إليه هناك برغبته في فتح مصر ، وأن عمر استمهله ليفكر في الأمر .

فلما أتى عمر بعد ذلك إلى الجابية - وهي من قرى دمشق - خلاً به عمرو مرة أخرى ، واستأذنه في فتح مصر ، ولكن عمر كان يخاف الله في دماء المسلمين جميعاً ، كان يخشى أن يراق دم مسلم واحد ظلماً أو خطأ فيسأل عنه أمام ربه في اليوم الآخر. كان عمر أحرص الناس على رعيته ، وكان يرى أن أمر العرب لم يستقر بعد في الشام ، فكيف يستطيع أن يرسل جيشاً جديداً لفتح جديداً في مصر ؟؟ .

هكذا كان يفكر عمر ، ولكن عمراً ما كان يعزم على أمر إلا بعد تفكير وتقدير واقتناع ، وإذا اقتنع ما كان يثنيه شيء عن رأيه ، فهو يقارع عمر الحجة ، ويقول له :
(إنها أكثر الأرض أموالاً) ^(١) .

ومع هذا لا يقتنع عمر بقوله ، فعمر لا يرى المال إلا عارية ، أما غرضه الأسمى فهو نشر الإسلام ، ثم هو يخشى ألا يستطيع العرب الغلبة على جيوش الرومان في مصر ، فإنه يعتقد أنهم لا بد قد اختصوا مصر بأقوى الجيوش وأكثرها عدداً وعدة لأهميتها بالنسبة للإمبراطورية ، ولكن عمر كان أعرف من عمر بمصر وقوتها فيرد عليه حجته ويقول :

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٥ ، ويقول الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٧ : (حتى فتح المسلمون الشام فخلا عمرو بأمر المؤمنين عمر بن الخطاب فاستأذنه في المضي إلى مصر ، وقال : إنى عالم بها وبطرقها ، وهي أقل شيء منعة وأكثر أموالاً ، فكره أمير المؤمنين الإقدام على من فيها من جموع الروم ، وجعل عمرو يهون أمرها ، وقد أمر أصحابه أن يتسللوا بالليل ثم اتبعهم ، فبيعت إليه أمير المؤمنين : كن قريباً منى حتى أستخير الله ، وذلك في سنة تسع عشرة) .

(وهي أعجزها - أي أعجز الأرض - عن القتال والحرب)^(١).

ومع هذا لا يقتنع عمر ، ولا يطمئن لقول عمرو وتحريضه ، فيضطر عمرو أن يفجأ خليفته بأخر حججه وأقواها التي تدفعه إلى التردد أولاً ثم الموافقة ثانياً ، فيبين له أن العرب إن لم يلاحقوا الرومان في مصر قبل أن يلموا شتاتهم بعد هزيمة الشام ، فإنهم لا شك جامعون جموعهم ومهاجمون الشام من صحراء العريش جنوباً ، ومندفعون إليها من آسيا الصغرى شمالاً ، ومحاصروها بأساطيلهم من البحر ، وبهذا تضع جهود المسلمين في فتح الشام هباء ويسترد الرومان هذا القطر منهم ، والرومان أيضاً باحتفاظهم بمصر يستطيعون أن يستعينوا بثروتها - وهي بلد غنى - على تنفيذ هذا البرنامج الحربي ، وختم عمرو حديثه بقوله :

(إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين ووعناً لهم)^(٢).

أمام هذه الحجج القوية وافق عمر على فتح مصر ، وعقد لعمرو على أربعة آلاف رجل كلهم من عك^(٣) ، وذلك في أواخر سنة ٦٣٩هـ .

هذا هو الرأي الذي نميل إلى الأخذ به ، يملية علينا التفكير السليم ومنطق الحوادث وطبيعة الرجلين عمر وعمرو ، وإن كانت هناك آراء أخرى لا بأس من أن نذكرها نقلاً عن البلاذري .

١ - أول هذه الآراء أن عمراً ، مضى إلى مصر من تلقاء نفسه في ثلاثة آلاف وخمسمائة ، فغضب عمر لذلك وكتب إليه يوبخه ويعنفه على افتنانه عليه برأيه ، وأمره بالرجوع إلى موضعه إن وافاه كتابه دون مصر ، فورد الكتاب عليه وهو في العريش^(٤) .

٢ - وثاني هذه الآراء أن (عمر كتب إلى عمرو بن العاص يأمره بالشخص إلى مصر ، فوافاه كتابه وهو محاصر قيسارية ، وكان الذي أتاه شريك بن عبدة ، فأعطاه ألف دينار ، فأبى شريك قبولها ، فسأله أن يسترد ذلك ولا يخبر به عمر)^(٥) .

٣ - وثالثها ما ذكرناه أولاً - وهو الأرجح .

(١) انظر الصفحة السابقة ، هامش ١ .

(٢) انظر الصفحة السابقة ، هامش ١ .

(٣) يقول الكندي : الولاة والقضاة ٨ : (إن عمرو بن العاص قدم مصر بثلاثة آلاف وخمسمائة ، تلثم من غافق).

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢١٦ ، ويروي الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٧ - ٨ عن ابن لهيعة عن

يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص كان بفلسطين على ربيع من أرباعها ، فتقدم أصحابه إلى مصر فكتب إلى عمر فيه وكان سار بغير إذن ، فكتب إليه عمر بن الخطاب بكتاب أتاه وهو أمام العريش فحبس الكتاب ولم يقرأه ، حتى بلغ العريش فقرأه فإذا فيه : من عمر بن الخطاب إلى العاص بن العاص ، أما بعد فإنه بلغني أنك سرت ومن معك إلى مصر وبها جموع الروم ، وإنما معك نفر يسير .. فإذا جاءك كتابي هذا فإن لم تكن بلغت مصر فارجع ، فقال عمرو : الحمد لله ، أية أرض هذه؟ قالوا : (من مصر) ، فتقدم إلى القرما وبها جموع الروم فقاتلهم) .

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢١٦ ، وانظر كذلك : المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٦٣ .

لم يكد عمرو يحصل على موافقة عمر حتى أسرع بالمسير فخرج في جوف الليل ، وترك عمر يفكر ويعيد التفكير ، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه عثمان بن عفان - وهو من نعرف ورعاً وتؤدة - فسأل عمر ما به ، فأخبره بما كان من موافقته عمرو على المسير إلى مصر ، فأجاب عثمان في الحال :

(يا أمير المؤمنين : إن عمراً لمجرأ وفيه إقدام وحب للإمارة ، فأخشى أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا)^(١).

وبهذا القول أصاب عثمان الهدف في نفس عمر ، فأثار مخاوفه من جديد ، وكان هذا رأيه في عمرو من قديم ، وإنه ليذكر أنه رأى عمر مرة يمشى فما تمالك أن قال لصحبه الذين حوله :

(ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشى على الأرض إلا أميراً)^(٢).

وندم عمر على ما فعل ، ولكنه لا يدري ماذا يفعل الآن وقد سار عمر بجيشه نحو مصر ، فسأل عثمان الرأي ، فقال عثمان :

- (فاكتب إليه : إن أدركك كتابي هذا قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك ، وإن كنت دخلت فامض لوجهك)^(٣).

وخرج الرسول يحمل خطاب عمر ، وأسرع يريد اللحاق بجيش عمرو ، واستشف عمرو ما في الخطاب ، وأيقن أن عمر يستدعيه لأنه بذل جهداً كبيراً في إقناعه ، وخرج والشك يلعب بنفس عمر ، فاستمهل الرسول حتى يستريح ويزيل عنه آثار السفر، فلما وصل بجيشه إلى الوادي الصغير الذي عند العريش أخذ الكتاب وقرأه ، ثم سأل من حوله - وهو أعلم منهم بأرض مصر وحدودها - :

«أنحن في أرض مصر أم في الشام؟..»

فقبل له : «نحن في مصر».

فقرأ عليهم كتاب الخليفة ، ثم قال :

«إذن نسير في سبيلنا على بركة الله كما يأمرنا أمير المؤمنين»^(٤).

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٦ ، والمقرئى : الخطط ج ٢ ، ص ٦٤ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٦٣ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٧ .

(٤) انظر بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٧٤ .

(ب) الفتح العربي لمصر

نستطيع أن نقسم حوادث الفتح العربي لمصر إلى أدوار ثلاثة.

١ - الدور الأول من بدء الفتح إلى وصول المدد.

٢ - الدور الثاني وينتهي بانتهاء موقعة عين شمس والاستيلاء على حصن بابلون.

٣ - الدور الثالث وينتهي بفتح الإسكندرية.

الدور الأول

وصل العرب إلى أرض مصر في الشهر الأول من سنة ١٩ للهجرة (الشهر الأول من سنة ٦٤٠م)^(١) وكانت العريش أول مدينة استولوا عليها، ثم غادروها، وسلكوا بعد ذلك الطريق التي تصل بين العريش والفرما، وهى طريق رملية بعيدة شيئاً ما عن البحر تتخللها عيون وقرى صغيرة، وقد سلكها منذ أقدم العصور كل وافد على مصر أو غاز لها من الشرق، فكانت طريق إبراهيم ويعقوب ويوسف، ثم شهدت مقدم قمبيز والإسكندر وأسرة المسيح - عليه السلام - وقبيل الفتح بسنوات قلائل شهدت هذه الطريق مقدم الفرس ثم عودتهم، وعبر هذا الطريق كذلك كان يمر الرحالة والتجار والحجاج من أفريقيا إلى آسيا فى رواحهم ومجيئهم.

ووصل عمرو بجنده القلائل إلى الفرما (بلوزيوم) شرقى بور سعيد الحالية، وقد كانت مدينة قوية ذات حصون، وكان لها مرفأ قريب على البحر، وإلى شرقها كان ينتهى الفرع البلوزى، أحد أفرع النيل القديمة، فيصب فى البحر، وهى إلى هذا كله كانت على رأس الطريق الصحراوى القديم المؤدى إلى مصر. ومع كل ذلك فإنها لم تكن منيعة فإن الفرس وقد كانوا مبرزين فى فنون الحصار لم يعانون مشقة كبرى فى فتحها، ولعلمهم دكوا أسوارها وخرّبوا حصونها كما خربوا كنائسها.

وكان من المنتظر أن يقدر الرومان لهذه المدينة أهميتها فيرموا حصونها ويزودوها بقوة دفاع كبيرة لتقيم على مناوشة العرب أطول مدة ممكنة حتى يستطيعوا الاستعداد داخل مصر، غير أنه يبدو أن الرومان فوجئوا بالفتح العربى، أو أنهم لم يكونوا يقدرون أن هذه القوة الضئيلة تستطيع أن تتقدم بالسرعة التى تقدم بها عمرو.

كانت المدينة ذات حصون كما ذكرنا. ولم تكن لدى العرب وقتذاك خبرة ما بدك الحصون أو تخريبها، كما لم تكن معهم الأسلحة التى تساعدهم على ذلك، ولم تكن لهم معرفة باستعمالها، فكان لا بد لهم - للاستيلاء على المدينة - أن يوالوا الهجوم على المدينة، أو يطيلوا

(١) أول عام سنة ١٩ هـ هو ٢ يناير سنة ٦٤٠م. وآخرها هو يوم ٢٠ ديسمبر ٦٤٠م.

حصارها حتى ينال الجوع ممن فيها، وقد فضل عمرو الوسيلة الثانية، لأنه يريد فتحاً سريعاً يطمئن به قلب عمر، وقد ساعد على تحقيق أمنيته أن حامية المدينة كانت تتركها لتنازل العرب بين الحين والحين، فحدث مرة أن نزلت الحامية للقتال ثم كرت راجعة فسبقها العرب إلى الأبواب واقتحموها قبلهم، وهكذا استولى العرب على الفرما بعد حصار دام شهراً واحداً.

وأدرك عمرو بعد استيلائه على هذه المدينة ذات الموقع الممتاز والأهمية الكبيرة، وبعد الصدام الأول مع هذه الفئة القليلة من جند الروم أنه سوف لا يستطيع الاستيلاء على حصون مصر الأخرى وخاصة حصن بابلليون إلا إذا وصلته إمداد جديدة من عمر، وهو يعلم أن الفرما تقع كما ذكرنا على رأس الطريق التي لا بد أن يسلكها المدد عند مجيئه إلى مصر فلا بد له إذن أن يترك بها حامية لحمايتها وحماية هذا الطريق، ولكن جنده كما نعلم قليل عديدهم، وهو في أشد الحاجة لأن يزيد هذا الجند لا أن ينقصهم بترك طائفة منهم لحماية الفرما، ولعل عمراً أيضاً قدر أنه في حاجة لحماية هذه المدينة ليضمن طريق العودة إن قدر له أن يهزم فيرتد، وهو أيضاً في حاجة إلى أن يسرع في تقديمه ليفاجئ الروم قبل أن يستعدوا، لهذا كله قرر عمرو أن يهدم حصون المدينة وأسوارها ليخلص من هذا المشكل، ولكي لا يستفيد منها الروم إذا فكروا في العودة إليها بعد مسيره.

ولنا أن نتساءل بعد ذلك لم يقدر الروم هذه المدينة حق قدرها فبهتوا بالدفاع عنها وكان في استطاعتهم - كما يقول بتلر - أن يرسلوا إليها عشرة آلاف جندي ليقضوا على قوة العرب الضئيلة ويؤخروا بذلك زمن الفتح العربي - ولا نقول يمنعه - وقد كان في مكنتهم هذا لأن الحصار دام شهراً كاملاً، ولكنهم لم يرسلوا أى نجدة للمدينة وحمايتها، فكان قعودهم عن الفرما وإسلامهم لها كما يقول بتلر «أول ما ارتكبه من خطئ في تلك الحرب»^(١).

تقدم عمرو بعد ذلك جنوباً ولم ينقص جيشه بل زاد بمن انضم إليه من بدو الصحراء حتى وصل إلى مدينة بلبيس حيث ظل يحاصرها شهراً آخر، استطاع في نهايته أن يدحر جيش الروم هناك، وأن يسير بعد هذا النصر قدماً نحو نهر النيل.

وصل عمرو إلى قرية أم دنين وكانت مرفأ هاماً على النيل شمالي حصن بابلليون، وموقعها الحالى في قلب القاهرة عند المكان الذى تشغله حديقة الأزبكية وما يجاورها، عند ذلك أدرك تيودور قائد الجيش الرومانى - كما أدرك قيرس - خطورة الحال، فأنحدر إلى حصن بابلليون ينظمان قوة الدفاع فيه، وكان من الممكن الاتصال عن طريق النيل بين هذا الحصن وبين حامية أم دنين، فكان من السهل على الجيش الرومانى أن ينزل فى أى وقت شاء لملاقاة العرب ثم يعود فى يسر وسهولة بعد ذلك ليحتمى بأسوار الحصن، وقد فقد الجيش العربى كثيراً من

(١) بتلر، ص ١٨٩.

أفراده أثناء هذه المناوشات وبدأت الكفتان تتكافآن، وأصبح مركز عمرو وجيشه حرجًا إن لم يتداركه عمر بالمدد، إذ لم يكن في استطاعته البتة أن يفتح مدينة مصر وحصن بابلليون الذى يحميها بمن معه من جند يقل عددهم يومًا بعد يوم، وهنا يقول بعض المؤرخين إن عمرا أرسل يستحث عمر لإرسال المدد، ثم أراد أن يشغل جنده بفتح آخر حتى يصل المدد، فعبر النيل وذهب ففتح إقليم الفيوم، وإن كان هذا الرأي مشكوكًا فيه، إذ كيف يخاطر عمرو فيعبر النيل بجنده ويسير جنوبًا ويعرض جيشه بذلك لهجوم الروم عليه من الشمال أو قطع الطريق بينه وبين المدد المنتظر.

ومهما يكن من أمر هذا الفتح فقد وصل المدد المنتظر^(١) حوالى اليوم السادس من شهر يونيو، فأصبح جيش عمرو خمسة عشر ألفًا وستمئة جندي، فقوى بذلك بأسه وبدأ يستعد لموقعة عين شمس ولحصار حصن بابلليون.

الدور الثانى

استقر عمرو بجيشه عند مدينة عين شمس، وجعل خطته أن يجتذب إليه جنود الرومان لينازلهم خارج الحصن، لأنه لم يكن للعرب كما ذكرنا خبرة بكيفية الاستيلاء على الحصون أو معرفة باستعمال الأسلحة التى تعينهم على ذلك.

وخرجت جيوش الروم رجالاً وفرساناً وسلاحهم السيوف والرماح وعليهم عدة الدفاع من خوذ ودروع لملاقاة العرب فى السهل الواقع بين الحصن ومدينة عين شمس، وكانت العيون التى أرسلها عمرو من جيشه قد نقلت إليه عزم الرومان على القتال فى هذا السهل. فأعد لهم عمرو خطة حربية فذة قدر لها النجاح التام. فقد استقر بقلب جيشه عند عين شمس، وأرسل فى جنح الليل كمينًا من جنده استقر غربًا فى قرية أم دنين وكمينًا آخر اختبأ عند جبل المقطم^(٢)، ويقول بتلر: «ولعله كان فى ثنية الجبل بقرب الموضع الذى فيه اليوم قلعة الجبل، وأصدر عمرو أوامره إلى الكميتين أن ينقضا على جانبي الجيش الرومانى ومؤخرته فى الوقت المناسب».

وفى الصباح خرج جنود الرومان من الحصن وانتشروا فى السهل، ولم يفتنوا لخطة عمرو ومكيدته، لأنهم رأوه يتقدم بجنوده نحوهم من ناحية عين شمس (هليوبوليس)، والتقى

(١) يقول بتلر، ص ١٩٩: «وكان الأمير على المدد الزبير بن العوام ابن عمه النبى وصاحبه وأحد رجال الشورى السقة، وكان معه أربعة آلاف رجل. ثم جاء فى عقبه كتيبتان كل منهما أربعة آلاف رجل. فكان جميع من جاء من الإمداد اثنى عشر ألفاً».

(٢) كانت هذه الموقعة فى النصف الأول من شهر يوليو سنة ٦٤٠م.

الجيشان في مكان وسط بين معسكريهما في المكان المعروف باسم (العباسية) وبدأت المعركة، واشتد القتال وحمى وطبسه، فانقضت كتيبة الجبل - وعلى رأسها خارجة بن حذافة - على مؤخرة الرومان كما تنقض الصاعقة، وأعملت السيوف في رقاب الرومان، فتولاهم الفزع وتملكهم الرعب، وانحدروا قليلاً جهة الغرب نحو قرية أم دنين؛ فخرجت إليهم الكتيبة الثانية، وأحاطت بهم، فاشتد بهم الذعر، وأيقنوا أنهم أحيطوا بالعرب من كل مكان، فتشتت شملهم. وقتل منهم العدد الأكبر، وفر من استطاع النجاة براً إلى الحصن، ولجأ آخرون إلى القوارب النيلية فحملتهم إلى الحصن كذلك.

كان لهذه الهزيمة أثر سيء جداً في نفس الرومان، ولكن العرب أفادوا من نصرهم فائدة جلية، فقد فتحت لهم هذه الموقعة الطريق إلى مدينة مصر، فاستولوا عليها ونقلوا إليها جيوشهم، فأصبحت معسكراتهم تشرف على الحصن مباشرة من جهتيه الشمالية والشرقية. وكان من أثر هذه الموقعة أيضاً أن فزع دومنتيانوس حاكم الفيوم، فتركها ليلاً دون حام يدافع عنها، وفر إلى نقيوس في الشمال، فلما علم عمرو بفراره أرسل إليها فرقة من جنده فتحتها وضمها لحكم المسلمين.

كان لعمرو بعد هذه الموقعة أن يختار أحد أمرين: أن يذهب بجيشه فيتبع فلول الجيش الروماني الذين فروا إلى الشمال ويتم وهو في طريقه فتح الوجه البحري، أو أن يقيم محاصراً للحصن حتى يتم له فتحه، وقد فضل عمرو الأمر الثاني، وذلك لأن بلاد الوجه البحري تفصل بينها فروع النيل وترعه ومجاريه المائية، وكان الوقت وقت فيضان والمياه تملأ هذه المجاري (نحو أوائل أغسطس سنة ٦٤٠م)، ثم إنه لو اتجه هذا الاتجاه لكان لزاماً عليه أن يشطر جيشه شطرين، شطر يبقى على حصار الحصن، وشطر يسير لفتح بلاد الوجه البحري والإسكندرية، وعمرو يدرك أنه لا يستطيع أن يخلف وراءه عدواً رابضاً في الحصن، كما أنه لا يستطيع أن يفتح الإسكندرية بنصف جنده، لهذا فضل أن يرباط بجيشه كله حتى يستولى على الحصن، ثم يسير بجيشه كله لإتمام بقية الفتح، وهكذا فعل.

كان حصن بابليون قوياً منيعاً بأبراجه وأسواره، ويطل على النيل من ناحية الغرب، وكانت تقابله على الضفة الغربية جزيرة الروضة وهي منيعة أيضاً بأسوارها وحصونها، وكان الاتصال سهلاً دائماً بين حامية الحصن وحامية الجزيرة وكانت مجانيق الرومان أفعل بالعرب مما كانوا يرمون به الحصن من حجارة وسهام ونبال.

غير أن الحالة المعنوية كانت في جيش العرب على النقيض تماماً مما كانت عليه الحالة المعنوية في جيش الرومان، فبينما الجيش العربي يملأه الإيمان بعدالة فكرته، يندفع نحو القتال وهو يرجو الموت ليفوز بالجنة قبل أن يرجو الحياة في النصر، وقد زادت سلسلة

الانتصارات المتتالية حماساً فرق حماس وقوة إلى قوة إذا بجيش الرومان قد أثرت فيه سلسلة الهزائم، وبهرته قوة العرب واستبسالهم في القتال، فانحلت قوى قواده قبل جنوده.

لهذا لم يمض على الحصار شهر حتى لعب اليأس بنفس الموقس (قيرس)، فجمع من يثق بهم من رؤساء الحرس وأشرك معهم أسقف بابليون الملكاني (وذلك في أوائل شهر أكتوبر سنة ٦٤٠م) وشرح لهم الموقف، وأفهمهم أن جيش العدو أصبح يفوق جيشهم عدداً، وهو أقوى وأشجع وأكثر حماساً، وأشد إقبالاً على القتال وإذا هم طلبوا المدد فإنه لا يصل إليهم قبل مضي شهر، ثم اقترح عليهم أن يفتدوا أنفسهم ومصر بمبلغ من المال يدفعونه إلى العرب ليتركوا مصر ويعودوا إلى بلادهم.

واستطاع قيوس أن يقنع أصحابه بحجته، ولكنه خشى أن يطلع جنود الحصن على رأيه وهم مصرون على القتال إلى النهاية، فاتفق مع صاحبه أن يخرج من الحصن في جناح الليل ويعبر إلى جزيرة الروضة حيث يستطيع أن يتصل بعمر و يعرض عليه اقتراحه دون أن تعلم بذلك حامية الحصن.

وصل الموقس إلى جزيرة الروضة، ومن هناك أرسل رسله ومن بينهم أسقف بابليون لمقابلة عمرو، فطلبوا منه أن يرسل إلى الموقس بعض رجاله ليتفاهم الطرفان على إنهاء الحرب، ولم ينس رسل الموقس أن يخيفوا عمرا ويحذروه من استمرار القتال، فذكروا له أن جيوش الروم كثيرة العدد ومزودة بالعدة والسلاح.

واحتجز عمرو الرسل يومين في معسكره، وسمح لهم أن يتنقلوا بين جنوده، ثم بعث معهم برده وفيه يقول: ليس بنى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال: إما إن دخلتم في الإسلام فكنتم إخوانا وكان لكم مالنا، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما إن جاهدنا كم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين».

ثم أرسل عمرو بعد ذلك إلى الموقس وفدًا من عشرة رجال على رأسهم عبادة بن الصامت ودار بين الرجلين: الموقس وعبادة نقاش طريف، عرض الموقس خلاله على وفد العرب أن يصلحهم على أن يفرض لكل رجل منهم دينارين، ولأميرهم مائة دينار، ولخليفتهم ألف دينار على أن ينصرفوا إلى بلادهم، فسخر عبادة من هذا العرض، ورد عليه ردًا قويًا ختمه بقوله: فليس «بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل، بذلك أمرني الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا».

وخلاً الموقس بأصحابه، وعرض عليهم الأمر، فوجد منهم إعراضاً شديداً عن الموافقة على الخصلة الأولى، لأنهم يعتزون بدينهم ولا يرون أن يتركوه لغيره، وأما عن الخصلة الثانية فقد

كانت إجابتهم «إنا إذا أذعنا للمسلمين ودفعنا الجزية لم نعد أن نكون عبيدًا، وللموت خير من هذا».

وعلى هذا انفض الجمع وهم مصرّون على القتال عازمون عليه، وإن كان هذا يخالف رأى المقوقس الذى كان يعتقد وقتذاك بأن النصر سيكون حتمًا فى جانب العرب، وأنه من الواجب أن يعقد معهم صلحًا مشرفًا حقنًا للدماء وصيانة للأرواح، وخاصة أن عبادة قد ذكر له أنهم إن دفعوا الجزية كانوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وذرياتهم، مسلمين فى بلادهم على ما فى أيديهم وما يتوارثونه فيما بينهم، وحفظت لهم كنائسهم، لا يتعرض لهم أحد فى أمور دينهم^(١).

ويبدو أن كبار الروم قد طلبوا من العرب عندما اختلفت آراؤهم الهدنة لمدة شهر، ولكن عمرًا لم يوافق إلا على إمهالهم ثلاثة فقط، غير أنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى الحصن، وانتشر بين الجند خبر المفاوضات ورغبة قيروس فى عقد الصلح، فأصر الجنود على القتال. وانتهت الأيام الثلاثة، ولم يتلق عمرو ردًا، فبدأ فى اليوم الرابع يفكر فى خطته القادمة، وإذا بحامية الحصن تأخذ العرب على غرة وتهاجم دون إنذار، ولكن العرب لم تبغتهم هذه المفاجأة، فسارعوا إلى أسلحتهم، وإلى عدوهم فأشبعوه قتلًا حتى فر راجعًا إلى الحصن، وقوت هذه الهزيمة إيمان قيروس بأن العرب لا يمكن أن يهزموا، وأن النصر لا بد مكتوب لهم، كما أضعفت هذه الهزيمة من عزيمة الفريق المعارض لقيروس، فخضعوا مرغمين لرأيه.

وبدأت مفاوضات الصلح تتجدد غير أن عمرًا أصر على شروطه، لم يغير فيها حرفًا واحدًا، فاختار الروم الأمر الثانى وهو الإذعان مع دفع الجزية، وكتبت شروط الصلح على أن ترسل لإمبراطور الرومان هرقل كى يوافق عليها، وأخذ قيروس على عاتقه أن يتولى هو إرسالها، واتفق الطرفان على أن تهدأ الحالة بينهما ويبقى الحصن فى يد الرومان حتى يصل الرد من هرقل.

أسرع المقوقس فغادر الحصن إلى الإسكندرية، ومن هناك أرسل شروط الصلح إلى إمبراطوره، وأصحابها رسالة يبرر فيها موقفه ويعتذر لسيدة لاضطراره إلى عقد الصلح، ويبين له أن العرب قوة لا يمكن أن تهزم، وأنه رأى بتصرفه هذا أن يحقن الدماء ويحمى مصر من الخراب؛ ويحلل بتلر فى الكلمات الآتية شعور هرقل عندما وصلته هذه الرسالة تحليلًا جميلًا فيقول:

«وليس بعجيب أن يكون هرقل قد حار فى أمر تلك الكتب التى جاءت من المقوقس، فإنها لا تبين إذا كان الصلح خاصًا بحصن بابلليون أو إنه كان صلحًا على ترك بلاد مصر جميعها حتى الإسكندرية للعرب، ولا تبين هل يبقى العرب فى البلاد بعد أخذ الجزية أو يرحلون

(١) بتلر، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

عنها، فهل كان معنى ذلك الصلح نزع مصر من دولة الروم وإسلامها لأعداء المسيحية، لقد كان الإمبراطور منذ شهور يلوم قواده ولاسيما قيروس خليفته على مصر لأنهم فرطوا في الأمر حتى استطاعت فئة قليلة من العرب أن ترفع ألويتها في مصر وتغلب جيوش الدولة وتتحداهما، فإذا به وقد بعث إليه بصلح ليس يدرى هل معناه رشوة العدو بمال يأخذه على أن يخرج عن تلك البلاد أم معناه إسلامها فيبقى ذلك العدو سيد الأرض يجبى له خراجها ويتنعم بمحمها وبخيراتها، عجب الإمبراطور ولم يدر ما الذى أدى إلى ذلك الإذعان، وعزم على أن يدعو (قيروس) المقوقس ليحاسبه على ما كان منه فى مصر»..

وأرسل هرقل رسالة إلى قيروس يستدعيه إليه، وكان لقاء عجيب بين الرجلين: فالإمبراطور يلوم عامله على مصر ويؤنبه على تهاونه وتقصيره حتى استطاع العرب - رغم قلة عديدهم - أن يوطدوا أقدامهم فى مصر، وقيروس ينتحل الأعدار ويبرر فعلته بما كان من ضعف الروم واستيسال العرب وتفانيهم فى القتال، غير أن هذه الأعدار لم تشفع له لدى سيده الذى رماه - وهو يتقد غضباً وغيظاً - بالإجرام والخيانة والجبن، ثم أشبعه تقريباً وتعنيفاً وأرسله إلى والى القسطنطينية فشهروه وأهانته، وانتهى به الأمر إلى النفى.

وكان معنى هذه الحملة من هرقل أنه رافض لشروط الصلح، ووصلت أخبار هذا الرفض إلى مصر مع نهاية عام ٦٤٠م فانتهت بذلك الهدنة، واستؤنف القتال، وكانت المياه قد غاضت من الخنادق المحيطة بالحصن، فاستعاض عنها الرومان بحسك الحديد وألقوه فى قيعان هذه الخنادق.

واستمر حصار العرب للحصن طول فصل الشتاء وهم يناوشون الروم ليلاً ونهاراً، ويقال إن جماعة من جند الروم الذين كانوا بالفيوم - وكانوا أكثر معرفة بقن مهاجمة الحصون - قد انضموا للعرب أثناء الحصار فكانوا يعبرون النيل فى سفنهم ليلاً فينهبون جزيرة الروضة أو يسلبون سفن الروم العابرة بين الجزيرة والحصن، ثم فتكت الأمراض بالجنود داخل الحصن وتناقص عددهم، وظلوا يترقبون وصول المدد من بلاد الروم، ولكن جندياً واحداً لم يصلهم، وإنما وصلتهم أنباء تنذر بالشر ولا تبشر بالخير، فقد علموا بالغضب الذى استحوز على هرقل، كما وصلهم ما أصاب المقوقس من تعذيب وتعنيف وتشهير ونفى، ثم ألقى إليهم أخيراً ما كان من رفض الإمبراطور للصلح.

وفى أوائل شهر مارس سنة ٦٤١م حملت إليهم الرياح أصوات جند العدو جميعاً تقصف كالرعد مهللة مكبرة، وتساءلوا فعلموا أن إمبراطورهم الشيخ الباسل قد مات، ففت ذلك الخبر فى عضدهم، وقضى على البقية الباقية فى نفوسهم من أمل، ومع ذلك فقد ظل الحصن شراً بعد ذلك يبذل الجهد الأخير ولا يسلم، فلما أبطأ الفتح قيل إن الزبير بن العوام وهب نفسه لله ووضع خطة جريئة لفتح الحصن تتفق وروحه وشجاعته، وكان العرب قد تمكنوا - رغم دفاع

حامية الحصن - من طم جزء من الخندق، وفى جنح الليل تقدم الزبير فوضع سلمًا على السور، ويرجح أنه اختار الناحية الجنوبية الغربية منه^(١) وصعد عليه، فلم يشعر الروم إلا والزبير على رأس الحصن يكبر وسيفه فى يده، فاندفعوا يسعون لصدده وردة، غير أن العرب طاردوهم بسهامهم التى أرسلت كالمنهمر خارج الحصن إلى داخله، وتسارع أيضًا أنصار الزبير إلى السلم، واعتلوا السور إلى جانبه، غير أنه يبدو أن الروم كانوا يتوقعون هجوم العرب من هذه الناحية، فأقاموا هناك حائطًا تعترض المشى فوق السور من جانبى ذلك الموضع. وكان من الممكن لو صمد الروم وثبتوا قليلًا أن يردوا العرب الذين تسلقوا عليهم الحصن ويفنؤهم قتلاً بسهامهم، غير أن خطة الزبير الجريئة كانت قد قضت على آخر شعاع من حماس، أو رغبة فى الدفاع، أو قوة على النضال عند الروم، فلم تكد الشمس تشرق حتى أرسل جورج قائد الحصن يعرض الصلح على عمرو بعد حصار دام سبعة أشهر، ويقال إن الزبير عارض فى أمر هذا الصلح وقال لعمرو: «إنك لو انتظرت قليلًا لفتحنا الحصن عنوة»، غير أن عمراً لم يستمع له، وأجاب دعوة قائد الحصن فى الحال، وكتب عهد الصلح بين الفريقين، وأهم شروطه:

- ١ - أن يخرج الجند من الحصن فى مدى ثلاثة أيام.
 - ٢ - أن يرحلوا عن طريق النهر ويحملوا معهم من القوت ما يكفيهم لبضعة أيام.
 - ٣ - أن يستولى العرب على الحصن وجميع ما فيه من ذخائر وآلات الحرب.
- وكانت هذه الحملة الأخيرة على الحصن يوم الجمعة السادس من أبريل سنة ٦٤١م، وبعد ثلاثة أيام، أى فى يوم عيد الفصح من تلك السنة، كان رحيل الروم عن الحصن وعن جزيرة الروضة متجهين شمالاً إلى العاصمة آخر معقل لهم فى مصر.

الدور الثالث

اتخذ عمرو بجيشه بعد ذلك الطريق إلى الإسكندرية، واستطاع أن يتغلب على المدن الحصينة التى قابلته، وأهمها: طرنوط - أو الطرانة كما يسميها العرب - ونقيوس، وسلطيس، وكريون وكانت آخر حصن فى الطريق إلى الإسكندرية، فلما افتتحها العرب خلالهم هذا الطريق، وأشرفوا على المدينة الحصينة، وحل موسم الفيضان من جديد، وكان الأسطول البيزنطى يحمى المدينة ويزودها بالمؤن والسلاح، فرأى عمرو أنه من العبث أن يستطيع العرب التغلب على حصونها وأسوارها، فترك قوة مسلحة ترابط جنوب المدينة، وخرج بفرق من جيشه لإخضاع بعض مدن مصر السفلى، ثم عاد إلى بابليون وخرج منها إلى الصعيد، فأكمل فتح الجزء الأكبر من مصر الوسطى.

(١) انظر: بتلر، ص ٢٣٦. هامش ٣.

وكانت الأمور في القسطنطينية تسير بعد موت هرقل من سىء إلى أسوأ، فقد تولى الحكم من بعده ولده قسطنطين وهرقل الثانى تساعدهما الإمبراطورة التى استدعت قيروس من المنفى وأعادته إلى مصر مزودًا بالسلطة التامة لعقد الصلح مع العرب، وقد وصل قيروس بأسطوله إلى الإسكندرية، ثم غادرها إلى بابلون حيث عقد مع عمرو بن العاص الصلح الأخير، ويسميه بتلر صلح الإسكندرية، لأنه خاص فى جملة بأهالى الإسكندرية، وتمييزًا له عن صلح بابلون الذى عقده جورج عند تسليم الحصن، وأهم شروط الصلح الأخير:

- ١ - أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد.
 - ٢ - أن تعقد هدنة لنحو أحد عشر شهرًا يجلو الروم خلالها عن مصر ويبحرون إلى بلادهم.
 - ٣ - أن يبقى العرب فى مواضعهم أثناء هذه الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ولا يسعوا أى سعى لقتال الإسكندرية، وأن يكف الروم كذلك عن القتال.
 - ٤ - أن ترحل مسلحة الإسكندرية فى البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعها، على أن من أراد الرحيل عن طريق البر فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزئًا معلومًا ما بقى فى أرض مصر أثناء رحلته.
 - ٥ - أن لا يعود جيش الروم إلى مصر أو يسعى لردّها.
 - ٦ - أن يعد العرب بعدم التعرض لكنائس المسيحيين أو لشئونهم الدينية.
 - ٧ - أن يسمح لليهود بالإقامة فى الإسكندرية.
 - ٨ - أن يبعث الروم مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند رهائن لتكون ضمانًا لتنفيذ شروط هذه المساعدة.
- وقد أمضيت هذه المعاهدة فى أوائل شهر نوفمبر سنة ٦٤١م، وأبحرت الجنود الرومانية إلى بلادها فى ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢م (٢١ هـ).

obbeikandi.com

الباب الأول

مدينة الفسطاط ، تأسيسها ونموها

الفصل الأول : الفسطاط ، كيف اختير مكانها ولم سميت بهذا الاسم ؟

الفصل الثانى : مدينة الفسطاط من الناحية العمرانية :

(أ) تخطيط المدينة .

(ب) نمو المدينة شرقا وغربا :

١- النمو شرقا : العسكر ، القطنع ، القاهرة .

٢- النمو غربا : جزيرة الروضة ، الجزيرة .

(ج) نمو المدينة ذاتها .

obekandi.com

الفصل الأول

مدينة القسطنطينية - تأسيسها ونموها

كيف اختير مكانها ؟ ولم سميت بهذا الاسم ؟

يستطيع القارئ لأخبار الفتح العربي لمصر أن يلمح في يسر ووضوح أن الحرب لم تكن قائمة إلا بين العرب والروم ، وأن القبط قد وقفوا من الجيشين موقف المحايدين ، وإن كانوا في سرائرهم يتمنون النصر للعرب ، لما سمعوه عنهم من حسن السياسة وطيب المعاملة ، ولهذا استمر الروم يدافعون عن مصر وراء حصن نابليون سبعة أشهر طويلاً ، والعرب يستمدون من الحماسة الدينية والإيمان قوة لا تأبه للعقبات وصبراً لا يعرف الملل .

ولما سقط هذا الحصن في أيدي العرب زالت من طريقهم أكبر عقبة من عقبات الفتح ، وتراجع الروم إلى الإسكندرية ، فتبعهم المسلمون وحاربوهم حتى استولوا عليها ، وبسقوط العاصمة الرومانية في أكتوبر سنة ٦٤١م تم فتح العرب لمصر ، فانتشروا في ربوعها حتى وصلوا إلى الشلال الأول ، وبذلك أصبحت مصر ولاية من ولايات الخلافة الإسلامية .

عمرو يريد أن يتخذ لمصر عاصمة :

روى أن ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبنائها مفروغاً منها هم أن يسكنها وقال : (مساكن قد كفيناها) ، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذنه في ذلك ، فسأل عمر الرسول :

(هل يحول بينى وبين المسلمين ماء؟) .

قال : (نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل) .

فكتب عمر إلى عمرو : (إنى لا أحب أن ينزل المسلمون منزلاً يحول الماء بينى وبينهم فيه شتاء ولا صيفاً ، فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى القسطنطينية^(١) .

قد تبعت هذه الرواية على التساؤل : لم كان عمر يخشى الماء ؟ يقول بعض المؤرخين إن العرب لم تكن أمة بحرية ، وبذلك أبى بعد النظر على عمر أن يلقى بجنود المسلمين فى مكان يفصل بينه وبين المدينة ماء حتى لا يكون هذا الماء إذا حزبهم الأمر حائلاً بينهم وبين الوصول إلى مركز قوتهم ، وإذا أراد الخليفة أن يبعث إلى جنده بمصر مدداً لم يكن هناك ماء يعترض سبيل هذا المدد ويمنع وصولهم .

(١) السيوطي : حسن المحاضرة . القاهرة ١٣٢٧هـ ، ج ١ ، ص ٥٧ .

وقد ذكر السيوطى فى (حسن المحاضرة) أن ابن عبد الحكم قد أخرج عن يزيد بن أبى حبيب أيضاً أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبى وقاص - وهو نازل بمدائن كسرى- ، وإلى عامله بالبصرة ، وإلى عمرو بن العاص وهو نازل بالإسكندرية : (أن لا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت) . فتحول سعد من مدائن كسرى إلى الكوفة ، وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه فنزل البصرة^(١) ، وتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط^(٢) .

من هذا نرى أن رغبة عمر فى أن لا يحول بين المسلمين وبينه ماء لم تكن مقصورة على مصر بل كان يريد أن تتوافر فى كل الأمصار التى فتحها العرب .

ويقول فريق آخر من المؤرخين ومنهم المستشرق الإنجليزى St.Lane-poole فى كتابه : The Story of Cairo إن عمر لم يكن قد رسم خطة ثابتة لتكوين إمبراطورية إسلامية واسعة ، ولذلك كان يريد أن يكون على اتصال دائم بجيوشه التى خرجت للفتح ، وإذا كان الطريق بين العرب والإسكندرية قابلاً للانقطاع فى زمن الفيضان فينقطع بذلك سبيل الاتصال بينها وبين المدينة عاصمة الخلافة ، فقد كتب عمر إلى عمرو يأمره أن يتخذ له حاضرة أخرى غير الإسكندرية .

ويبدو عند مقارنة هذين الرأيين ، أحدهما بالآخر - أنه ليس للرأى الثانى من القوة والصحة قدر ما للرأى الأول ، وذلك لأن النشاط الذى أبداه عمر منذ ولى الخلافة ، وإرساله الجيوش تلو الجيوش إلى الشام وفارس ومصر ، كل هذا يثبت بالبرهان القاطع أن المستشرق الإنجليزى لين بول إنما قال ما قال من باب التعليل والاستنتاج العقلى فحسب .

لهذا أعرض عمرو عن الإسكندرية وولى وجهه شطر الفسطاط .

(١) فى عهد عمر بن الخطاب فتح المسلمون العراق ، (وهناك على شط العرب اختط الأمير عتبة بن غزوان مدينة البصرة وجامعها ودار إمارة بجواره حوالى سنة ١٤هـ-٦٣٥م) ، فكانت أول مدينة أسسها المسلمون ، وبعد ذلك وعقب معركة القادسية أسس الأمير سعد بن أبى وقاص مدينة الكوفة سنة ١٦هـ - ١٧هـ (٦٢٦م-٦٣٧م) ، وأنشأ بها مسجداً جامعاً وداراً للإمارة أيضاً ، فلما فتح الأمير عمرو بن العاص مصر اقتدى بالأميرين السابقين فاخطت الفسطاط ، وأنشأ بها فى سنة ٢١هـ (٦٤١م-٦٤٢م) جامعة المعروف انظر : محمود أحمد : جامع عمرو بن العاص ، القاهرة ، ١٩٣٠ ، ص ١ : واليعقوبى : كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١م ، ص ٣٢٣ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، نفس الجزء والصفحة ، وانظر أيضاً ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٨٥ حيث يقول : (وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه منع المسلمين من الغزو فى البحر شفقة عليهم) .

ولنا أن نتساءل مرة أخرى . لم اختار عمرو هذا المكان دون غيره لبناء مدينة
الفسطاط؟

وهنا تتشعب الآراء وتتعدد ، ولكنها برغم تشعبها وتعددتها لا تصل إلى رأى حاسم معقول ،
فغالبية المؤرخين المصريين كابن عبد الحكم ، وابن دقماق ، والمقريزى ، وأبى المحاسن ،
والسيوطى وغيرهم يروون حادث اليمامة على أنه السبب الأساسى لاختيار عمرو لهذا المكان ،
ونزوله وجيشه بين ربوعه ، وغالبية المؤرخين الفرنجة كبتلر ، ولين بول ، وكازانوف وغيرهم
لا يهتمون بمناقشة الأسباب التى دعت لاختيار هذا المكان دون غيره ما يهتمون بمناقشة الآراء
المختلفة فى سبب تسمية هذه الحاضرة بالفسطاط .

ورغم أنهم يستطرفون قصة اليمامة فإنهم يرجعون هذا الاسم إلى الكلمة الإغريقية Fossatum
(أى المدينة) ، ويقولون بأن العرب نقلوها عن الروم الشرقيين عند اتصالهم بهم فى حروب
الشام .

غير أننا نحب أن نعنى بالأمرين جميعاً لما لكل من الأهمية ، ولذا ستحاول :

أولاً : مناقشة الأسباب التى دعت لاختيار هذا المكان ليكون حاضرة الديار المصرية بعد إتمام
الفتح العربى .

ثانياً : مناقشة الأسباب التى دعت لتسمية هذا المكان بالفسطاط .

١ - أسباب اختيار هذا المكان :

أما عن الأمر الأول فيقول المقريزى فى خطته : (أعلم أن موضع الفسطاط الذى يقال له اليوم
مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم ، وليس
فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة ، ينزل به شحنة
المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند سيره من مدينة الإسكندرية ، يقيم فيه
ما يشاء ثم يعود إلى دار الإمارة)^(١) .

من هذا يبدو أن العرب قد أنشأوا مدينتهم (الفسطاط) فى الفضاء المجاور لحصن بابليون -
مقر الدفاع الرومانى - ، وهنا نجد اختلافاً آخر بين المؤرخين بشأن كلمة (بابليون) . فالبعض
يطلقها على الحصن فحسب ، والبعض الآخر يقول بوجود مدينة حول الحصن كانت تسمى
بهذا الاسم ، وزعيم الفريق الثانى هو الدكتور بتلر ، وقد لخص رأيه فى هذه الفقرة .

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٩ ، مطبعة النيل بالقاهرة سنة ١٣٢٤هـ .

١ - كانت تقوم في زمن الفراعنة مكان مصر القديمة (الفسطاط) مدينة ذات شأن يدل عليها وجود بعض التماثيل المصرية ، مثل (سرية أبي الهول) وأن بعضاً من هذه التماثيل بقى حتى زمن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي^(١) .

٢ - وفي القرن السادس قبل الميلاد اتخذ البابليون لهم في هذا المكان معسكراً حربياً وأنشأوا هناك حصناً على المرتفعات الصخرية التي سماها العرب فيما بعد (الرصد) .

٣ - ومن هذا المعسكر انتشر اسم (بابليون) حتى شمل الإقليم المجاور وأصبح الاسم المميز لمدينة عظيمة تمتد بعيداً شمال الرصد حتى تتصل بأطراف المدينة القديمة العظيمة المنحلة وقتذاك : (هليوبوليس أو عين شمس) .

٤ - وعندما أراد تراجان أن يعزز قوته عند رأس الدلتا ، واعتزم أن يبني حصناً قوياً كقلعة لبابليون ترك حصن الفرس القائم على الرصد وأنشأ قلعته على شاطئ النيل ، وذلك ليضمن وجود الماء بالقرب من حاميته ، ولتستطيع تلك الحامية الاتصال - بوساطة النيل - بسائر جهات القطر المصري ، وسمى هذا الحصن بحصن بابليون (أى حصن مدينة بابليون) أو قلعة مصر - Castle of Khemi ، وقد حرف العرب هذا الاسم فيما بعد فسموه قصر الشمع .

٥ - وبذلك هجر حصن الرصد الفارسي واستولت عليه عوامل الانحلال والنسيان ، حتى إذا كان الفتح العربي بعد ذلك بخمسة قرون ونصف كانت الأخبار على وجوده عامة لا تكاد تذكر .

٦ - أن اسم بابليون الذى وجده العرب عند قدومهم يطل على مدينة مصر قد تلاشى بمرور الزمن ، وحل مكانه الاسم العربى الجديد (الفسطاط) ، حتى إذا ابتدأ مؤرخو العرب يدونون كتبهم كان اسم (بابليون) قد أصبح يطلق على قصر الشمع فحسب بعد أن انتزع من المدينة التى أصبحت بعد اتساعها ونموها تسمى بالفسطاط .

٧ ولكن هذا الاستعمال المحدود للاسم ابتدأ كذلك يتلاشى فى مصر فى الأزمنة الحديثة ، وغادر الاسم الأتقاض الباقية من قصر الشمع ، وتضاءل حتى غداً يطلق على دير قبطى صغير

(١) يذكر ابن دقماق فى كتاب (الانتصار لواسطة عقد الأمصار) ، جـ ٤ ، ص ٢١ - ٢٢ بولاق ١٣٠٩هـ ، عند كلامه عن الأزقة التى كانت بالفسطاط (زقاق الصنم) ، ويقول إنه سمي بهذا الاسم لوجود صنم به كان يسمى (سرية أبى الهول) ، وقد هدمه الأمير بلاط سنة ٧١١هـ ، فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون (انظر أيضاً : الميرزى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٨٨) ، ويتفق مع هذا أيضاً ما رواه ابن الفقيه فى كتابه البلدان ، ص ٦٠ عن وجود تمثال من الحجر لامرأة كات بالفسطاط ، وما رواه المقدسى فى كتابه (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) ص ٢١١ ، ليدن ، سنة ١٨٧٧م ، إذ يقول : (وفى الفسطاط عند قصر الشمع امرأة ممسوخة على رأسها سفرة من حجر... إلخ) ، هذا وقد عثر فى السنوات الأخيرة على قطع من الحجر فى حفائر الفسطاط مكتوب عليها بالخط الهيروغليفى وقد نقلت إلى دار الآثار المصرية .

يقع عند البوابة الجنوبية من الحصن ويسمى (دير بابليون) ، وعند ذلك الدير الصغير استقر ذلك الاسم التاريخي القديم بعد أن خلفه في تسمية المدينة (لفظ الفسطاط) ، وبعد أن خلفه في تسمية الحصن لفظ (قصر الشمع)^(١) .

ونحن لا يهمنا من هذا التحليل كله لتطور استعمال كلمة بابليون إلا أن نعرف أن المكان الذى أنشأت عليه الفسطاط كانت تشغله منذ أيام الفراعنة مدينة كبيرة ذات شأن اتخذها البابليون مكاناً لاستقرارهم ، ثم اتخذها الرومان مقراً لدفاعهم يصلون به الوجهين البحرى القبلى ، ويدفعون منه كل مغير على مصر .

وهذا ما يؤيد رأى الذى نريد أن نذهب إليه من أنه كان فى مصر وقت الفتح مدينتان هامتان : إحداهما الإسكندرية ، وتعتبر العاصمة الأولى وذلك لقربها من الدولة الرومانية الشرقية صاحبة السيادة وقتذاك ، وإشرافها على البحر الأبيض المتوسط ، وبابليون أو (مصر) وتعتبر العاصمة الثانية ، وذلك لموضعها من رأس الدلتا بحيث تشرف على الوجهين القبلى والبحرى ، ولوقعها على شاطئ النيل بحيث تكون سهلة الاتصال - بوساطة هذا النهر - بكل أطراف القطر المصرى ، ولتوسطها بين النيل غرباً (وهو مورد من الماء لا ينفد) وبين جبل المقطم شرقاً - وهو حد طبيعى لحمايتها - ولهذا نلاحظ أن المصريين منذ القدم كانوا يختارون هذا المكان مقراً لحكمهم للأسباب المتقدم ذكرها^(٢) ، فاتخذوا منف عاصمة لهم مدة ليست بالقليلة ، وكانت هليوبوليس (عين شمس)^(٣) كذلك حاضرة لمصر مدة طويلة^(٤) ، وبابليون كما ترى تقع بين المدينتين^(٥) ، يقول ابن حوقل فى كتابه (المسالك والممالك) : (عين شمس ومنف قريتان قد خربتا ، كانتا منتزعا لفرعون .. عين شمس عن شمال الفسطاط ، ومنف عن جنوبه) .

ويؤيد هذا الرأى القائل بوجود هذه المدينة أيضاً قول المقرئى : (وكان بجوار هذا الحصن (بابليون) من بحريه وهى الجهة الشمالية أشجار وكروم وصار موضعها الجامع العتيق ، وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى فى الموضع الذى يعرف اليوم براشدة ، وبجانب الحصن فيما بين الكروم التى بجانبه وبين الجرف الذى يعرف اليوم بجبل يشكر

Butler : Babylon of Egypt. Oxford, 1914, p. 62-63.

(١)

(٢) يقارن هذا بما ذكره ابن خلدون فى مقدمته ، ص ١٩٠ - ١٩١ ، القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ ، عما تجب مراعاته فى أوضاع المدن .

(٣) يقول ابن دقماق ، ج ٤ ، ص ٣ ، نقلاً عن ابن سعيد : (كانت مبانيها (أى مباني مصر) فى قديم الزمان متصلة بمباني عين شمس) .

(٤) وقد بنيت العواصم المصرية الأخرى كلها شمال هذا المكان (العسكر سنة ١٣٣ هـ ، والقطائع سنة ٢٥٦ هـ ، والقاهرة سنة ٣٥٨ هـ) .

(٥) يعين ابن الفقيه فى كتابه (مختصر البلدان) موقع الفسطاط (بابليون) بالنسبة للمدينتين القديمتين فى قوله : (وعين شمس على ٣ فراسخ من الفسطاط ومنف مساكن بينها وبين عين شمس ٣ فراسخ) .

حيث جامع ابن طولون والكبش عدة كنائس وديارات للنصارى فى الموضوع الذى كان فى أوائل الإسلام بالحمرء^(١) .

وقول ابن سعيد فى كتابه المغرب :

(وأما فسطاط مصر فإن مبانيها كانت فى القديم متصلة بمباني عين شمس . وجاء الإسلام وبها يعرف بالقصر حوله مساكن)^(٢) .

ونحن نعرف أن المعابد عامة - من هياكل وبيع وكنائس ومساجد - منذ أقدم العصور إلى اليوم - لا تبني إلا فى المدن أو الأماكن الآهلة بالسكان ، فوجود هذه الكنائس والديارات فى الأماكن التى يذكرها المقرئى تثبت إثباتاً قاطعاً وجود مساكن آهلة ومبان عامرة فى هذه المدينة القديمة وقت الفتح ، وقول ابن سعيد لا يحتاج إلى هذا الاستنتاج ، إذ يقول فى عبارة واضحة لا لبس فيها ولا إبهام : (وجاء الإسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن) .

من هذا نرى أن اختيار عمرو لهذا المكان لم يقع اعتباطاً ، بل كان اختياراً طبيعياً . كان عمرو يريد أن يتخذ له حاضرة يستقر فيها ، غير أنه ما كان يريد أن يبذل جهداً فى إنشاء هذه الحاضرة بدليل رغبته فى اتخاذ الإسكندرية حاضرة ، وبدليل تعبيره عن هذه الرغبة بقوله : (مساكن قد كفيئناها)^(٣) ولكن عمر قد أمره أن يتحول عن الإسكندرية ، فكان لزاماً على عمرو أن يحول وجهه شطر العاصمة الثانية وقتذاك وهى (بابلليون) أو (مصر) ، فذهب إليها ، واتخذ القضاء المجاور لها مقراً له ولجنوده .

هذه هى الأسباب الطبيعية التى دعت عمراً لاختيار هذا المكان ، غفل عن ذكرها مؤرخو العرب ، ولم يعرها اهتماماً مؤرخو الفرنج .

٢ - لم سميت المدينة بهذا الاسم ؟ :

أما عن الأمر الثانى وهو الأسباب التى دعت لتسمية هذا المكان بالفسطاط فإن الآراء فيها وإن اختلفت وتشعبت فإنها كذلك لا تصل بنا إلى حل حاسم معقول .

أما مؤرخو العرب فيعتمدون جميعاً على قصة اليمامة ، وأما مؤرخو الفرنجة فتقول غالبيتهم بأن كلمة الفسطاط قد أخذت عن الكلمة الإغريقية Fossatum أى المدينة ، وأن العرب نقلوها عن اليونان عند اتصالهم بهم فى حروب الشام :

(١) المقرئى : المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٦٢ .

(٣) المقرئى : المرجع السابق ، ص ٧٥ - ٧٦ .

غير أنا نرى أن قصة اليمامة مع طرافتها قد تبعد عن الصحة، وذلك لأنهم يقولون إن عمراً قد أوصى أحد المصريين - في رواية - أو صاحب القصر - في رواية أخرى - بالمحافظة على الخيمة «الفسطاط» حتى تفرخ اليمامة وتطير صغارها، وأنه عند رجوعه وجد الفسطاط في مكانه، فنزل هو وجنده بجواره، ونحن نشك في صحة هذا الخبر لأن عمراً ولو أنه كان قد استولى على حصن بابلليون فإن مصر لم تكن قد خضعت كلها لأمره، ولذلك لا يعقل أن ذلك الرجل المكلف بالمحافظة على الفسطاط يبقى على عهدده ويحافظ على وعده مع رجل فاتح لم يثق بعد أنه أصبح الحاكم على مصر حتى يخشاه ويحافظ على حراسة فسطاطه من أجل يمامة طول ذلك الوقت الذي استنفده عمرو في فتح الإسكندرية وما بين بابلليون والإسكندرية من مدن. ويدفعنا أيضاً إلى الشك في صحة هذه القصة ما هو معروف مشهور عن الطيور المختلفة وخاصة الحمام واليمام من أنها تتخير لأعشاشها وبيضها وفراخها الأماكن المنعزلة المهجورة البعيدة عن أن يطرقها إنسان أو تنالها الأيدي صوتاً للأعشاش وحفظاً للبيض وإبقاء على الصغار.

فهل من المعقول إذن أن تترك هذه اليمامة العمرية تلك الأماكن الآمنة لتضع بيضها في معسكر دائم النشاط دائم الحركة، وفي خيمة القائد، وهي أنشط أماكن المعسكر بالحركة وأعمرها بالوافدين؟

وإذا كانت هذه القصة صحيحة ففي أى مكان من الخيمة تبنى اليمامة عشها، والخيمة كما نعرفها جميعاً مصنوعة من قماش أملس وهي منحدرية الجوانب إذا نصبت^(١). كل هذا يؤيد شكنا في صحة هذه القصة وكونها أصلاً للتسمية.

أما الرأي الثاني فيبدو كذلك بعيداً عن الصحة، وذلك لأن ابن قتيبة يروى في كتابه «غريب الحديث» حديثاً للرسول نصح: «عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط»^(٢)، ونحن إزاء هذا نجد أنفسنا أمام احتمالين: إما إن يكون الحديث صحيحاً فيبطل الرأي القائل بأن العرب أخذوا كلمة الفسطاط عن الروم عند اتصالهم بهم في حروب الشام، لأن حروب الشام واتصال العرب بالروم كان بعد وفاة النبي ﷺ، وبالتالي بعد ذكره لهذا الحديث، وإما أن يكون الحديث غير صحيح، وبذلك يحتمل أن يكون رأى مؤرخى الفرنجة صحيحاً.

(١) يذكر هذه القصة بالتفصيل مؤرخو العرب جميعاً، انظر مثلاً: المقرئ، المرجع السابق ص ٧٦؛ وابن دقماق: المرجع السابق، ص ٢، ومراصد الأطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، إبريل سنة ١٨٤١م، ج ٢، ص ١٣٥٤، وأبو الحسن، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٦٤، ٦٥، القاهرة سنة ١٩٢٩م.. إلخ غير أنه يتضح بعد مناقشتها أنها من وضع هؤلاء المؤرخين كغيرها من القصص التي تنسب لعهد الفتح، وخاصة قصة الفتاة التي كانت تقدم ضحية ليفيض النيل، والخطاب الذي أرسله عمر لينقى بدلاً من الفتاة.

(٢) ورد هذا الحديث أيضاً في: ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٢، انظر أيضاً ياقوت: معجم البلدان.

غير أننا نحب أن ندلى برأى يخالف هذين الرأيين وقد يكون أقرب منهما إلى الحقيقة، وذلك أن كلمة الفسطاط كلمة عربية معناها المدينة، فإننا إذا رجعنا إلى القاموس المحيط وجدنا أن «الفسطاط» بالضم «مجتمع أهل الكورة»، ووجدنا أن الكورة هي «الصقع أو المدينة» وبذلك تكون الفسطاط هي مجتمع أهل المدينة.

ويقول ابن قتيبة تعقيباً على الحديث سالف الذكر: «والفسطاط المدينة»^(١)، وينقل عنه المقرئ أيضاً في الخطط ما يلي: «قال ابن قتيبة. كل مدينة فسطاط»^(٢).

ويقول المقرئ بعد هذا: «وأخبرني أبو حاتم الأصمعي أنه قال: حدثني رجل من بني تميم قال: قرأت في كتاب رجل من قريش هذا ما اشترى فلان بن فلان من عجلان مولى زياد، اشترى منه خمسمائة جريب حبال الفسطاط، يريد البصرة»^(٣).

ويشبه هذه الرواية الأخيرة ويؤيدها قول ابن الفقيه:

«وإنما سميت البصرة فسطاطاً على التشبيه بفسطاط مصر»^(٤).

وقريب من هذا المعنى قول المقدسي: «الفسطاط هو مصر في كل قول»^(٥).

فالراجح عقلاً بعد ذكر هذه الآراء جميعاً أن كلمة «فسطاط» كلمة عربية خالصة معناها «المدينة».

وخلاصة القول الذي نريد أن نذهب إليه أن العرب اختاروا هذا المكان اختياراً للأسباب السابق ذكرها، وأنهم سموه الفسطاط أي «المدينة» أو «مجتمع أهل المدينة». يقصدون بذلك المكان الذي يجتمعون فيه حول جامعهم وحول منزل قائدهم.

(١) ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٢.

(٢) يقول القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٢٢٦ «قال ابن قتيبة إن كل مدينة تسمى فسطاط، ولذلك سميت مصر الفسطاط».

(٣) المقرئ: المرجع السابق، ج ٢، ص ٧٥ - ٧٦.

(٤) ابن الفقيه: كتاب مختصر البلدان، ص ٦٧.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٩٧.

الفصل الثانى

مدينة الفسطاط

من الناحية العمرانية

(أ) تخطيط المدينة

كان أول ما عنى به عمرو بن العاص بعد أن خضعت له مصر أن بدأ يشيد مسجده الجامع فى الحاضرة التى اختارها، وبنى فى شرقى المسجد داراً خاصة لسكنه كانت تعرف بعد ذلك باسم «دار عمرو الكبرى»، وكان مدخله إليها من بابها القبلى الذى فى زقاق القناديل»^(١)، أمر الأزقة بالفسطاط وسكن كبار القوم فيما بعد، كما بنى ابنه عبد الله بن عمرو داراً ملاصقة لدار أبيه، عرفت باسم «دار عمرو الصغرى»^(٢).

وقد اختطت القبائل العربية حول المسجد الجامع ودار عمرو، واختار عمرو أربعة نفر يمثلون القبائل الكبرى لتقسيم الخطط بين القبائل حتى لا ينشب بينها نزاع، وهؤلاء الأربعة هم: معاوية بن حديج التجيبى، وشريك بن سمي الغطيفى من مراد، وعمرو بن مخزوم الخولانى، وحيويل بن ناشرة المعافى، «فكانوا هم الذين أنزلوا الناس، وفضلوا بين القبائل، وذلك فى سنة إحدى وعشرين»^(٣).

وقال ابن عبد الحكم إنه لما اختطت القبائل استحبت همدان وما والاها الجيزة، فكتب عمرو ابن العاص يستفتى عمر فى ذلك، فأرسل إليه عمر يقول:

«كيف رضيت أن تفرق أصحابك، ولم يكن ينبغى لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر، لا تدرى ما يفجؤهم، فلعلك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكره، فاجمعهم إليك، فإن أبوا وأعجبهم موضعهم فابن عليهم من فى المسلمين حصناً»^(٤).

وأبلغ عمرو هذه القبائل أوامر الخليفة، فأبوا أن يغيروا موضعهم الذى اختاروه فى الجيزة، فبنى لهم عمرو الحصن الذى فى الجيزة فى سنة إحدى وعشرين، وفرغ من بنائه فى سنة اثنتين وعشرين.

(١) و (٢) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج ٤، ص ٧.

(٣) ابن دقماق: المرجع السابق، ج ٤، ص ٣ والسيوطى: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٧ - ٥٨.

القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٠٧.

(٤) ابن دقماق: المرجع السابق ج ٤، ص ٣.

واختطت قبائل همدان وذو صبح ونافع وغيرها بالجيزة، وتركوا فضاء بين القبيل والقبيل، فلما قدمت الإمداد في زمن عثمان بن عفان وما بعد ذلك، وكثر الناس «وسع كل قوم لبنى أبيهم حتى كثر البنيان والتأمت خطط الجيزة»^(١).

ويقول بتلر:

«لا شك في أن الذين اختطوا المدينة الجديدة وبنوها كانوا من القبط، إذ لم يكن عند ذلك في العرب من له علم بذلك الفن ولا دراية به».

ولكن غالبية المؤرخين المحدثين لا يتفقون مع بتلر في هذا الرأي، بل يأخذون بآراء المؤرخين العرب القدامى التي تعهد بتخطيط المدينة إلى الأربعة السابق ذكرهم، إذ لم تكن الفسطاط وقت إنشائها من التعقيد والكبر بحيث تحتاج لخبرة القبط أو فنهم.

ويصنف «متز» في كتابه «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري»^(٢) المدن التي أسست في الدولة الإسلامية إلى أربعة أنواع:

١ - مدن على الطراز الهيليني المعروف في حوض البحر الأبيض المتوسط.

٢ - والمدن التي كانت تشيد على الطراز البابلي.

٣ - والمدن التي كانت على الطراز المعروف في شرقي الدولة الإسلامية (الإيراني مثلاً).

٤ - والمدن التي على طراز جنوبي جزيرة العرب، ومثلها صنعاء، ومن هذا الطراز مكة والفسطاط.

ومن البديهي أن تشيد الفسطاط على هذا الطراز العربي لأن معظم جيش عمرو الذي فتح مصر كان يتكون من قبائل يمنية كقبيلتي عك، والمغافر وغيرها.

وهذا الطراز يعتبر أبسط الطرز الأربعة السابق ذكرها، فهو لا يعدو أن يكون تخطيطاً ساذجاً للمدينة بحيث ينزل كل قوم من قبيلة في مكان خاص بهم، وسميت هذه المنازل في الفسطاط بالخطط، وستسمى في القاهرة عند إنشائها بالحارات.

وإذ كان العرب أمة بدوية تعتمد الاعتماد كله في الحرب والمعيشة والانتقال على الدواب من خيل وجمال، فقد تركوا حين اختطوا المدينة، «بينهم وبين البحر والحصن فضاء لتفريق دوابهم وتأديبها، فلم يزل الأمر كذلك حتى ولي معاوية بن أبي سفيان، فأقطع في الفضاء وبنيت به الدور»^(٣)، كما كان أمام دار عمرو الكبرى موقف لدواب الجند^(٤).

(١) ابن دقماق: نفس المرجع، ج ٤ ص ٣.

(٢) الترجمة العربية لمحمد عبد الهادي أبو رييدة، ج ٢، ص ٢٢٧.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٨٥.

(٤) ابن دقماق: المرجع السابق، ج ٤، ص ٧.

وكان يفصل بين المنازل أنواع من الطرق المختلفة الاتساع والامتداد، فأكبرها لا يزيد عرضه عن ستة أمتار، وأضيقتها لا يتجاوز متراً ونصف متر^(١)، وكان يطلق عليها بنسبة عرضها أو اتساعها أو طولها أو اتصالها اسم: حارة، أو درب، أو زقاق، وكانت تسمى بأسماء القبائل التي نزلت بها، أو كبار العرب الذين سكنوها، أو بأسماء الحرف والصناعات أو أنواع التجارة.. إلخ.

ولم تكن هذه الطرق ممهدة أو مغطاة بطبقة من البلاط أو أى مادة أخرى لتجعلها نظيفة، يؤيد هذا ما يقوله على بهجت ومحمود عكوش:

«ويظهر أن أرض الدروب وغيرها من الطرقات لم تكن مبلطة فإننا لم نعثر فى أى موقع من مواقع المدينة المكشوفة على أثر للبلاط أو أن الأرض مفروشة بمادة أخرى»^(٢).

ولم يكن يحيط بالفسطاط سور فى أول أمرها، وإن كان ابن دقماق يذكر أنه كان بها من ناحية خط الحمراء القصوى «باب مصر» وكان به برجان يمتد ويسرة، بعتبة سفلى صوتاً، وقوس معقود عليه، ودفتين تغلقان عليه، يسلك منه إلى الفواخير.. وكان يسلك منه إلى أربعة طرق، الأول الطريق إلى القاهرة، وعلى يمينته إلى الفواخير، وعلى يسرته إلى البحر وإلى مصر^(٣). وفى عهد صلاح الدين بنى السور الكبير الذى كان يحيط بالقاهرة والفسطاط وما بينهما.

وكانت المباني الأولى فى الفسطاط غاية فى البساطة، وكلها من اللبن، فقد كان المسجد الجامع - وهو أهم مبانيها - ذا سقف منخفض وليس به نوافذ أو فراغ فى السقف حتى يتخلله الهواء، ولم يكن له صحن، «وكان الناس يصلون بفنائمه»^(٤).

وكانت الدور وقت إنشاء المدينة كلها من طابق واحد، وأول من بنى غرفة فوق الطابق الأول هو خارجة بن حذافة، فكتب عمر إلى عمرو «أن أدخل غرفة خارجة، وانصب فيها سريراً، وأقم عليه رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير، فإن أطلع من كواها فاهدمها»، ففعل ذلك عمرو، فلم يبلغ الكوى فأقرها^(٥).

ومن هذه الرواية نعرف أن العرب لم يجعلوا لمنازلهم الأولى نوافذ، بل اتخذوا فيها كوى، وكانت هذه الكوى مرتفعة تقرب من السقف، بحيث أن الرجل الواقف على السرير لا يستطيع أن ينظر منها إلى الخارج.

(١) بهجت وعكوش: حفريات الفسطاط، ص ٣٧.

(٢) بهجت وعكوش: حفريات الفسطاط، ص ٣٧.

(٣) ابن دقماق: ج ٤، ص ٢٧.

(٤) نفس المرجع السابق ص ٦٢.

(٥) ابن دقماق، ص ٦، والسيوطى: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٩، والقلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣،

ص ٢٣٠، وقد تولى خارجة الشرطة لعمر بن العاص. انظر: الكندي: الولاة، ص ١٠.

ولم تلبث المدينة على بساطتها طويلاً، فقد كثر سكانها، وعلت منازلها حتى أصبحت تبلغ الأربع أو الخمس طبقات^(١)، أو السبع أو الثمانى طبقات فى رواية أخرى^(٢)، وأصبحت أكثر المبانى تبنى «بالآجر المحكوك والجبس والجير من أوثق بناء وأمكنه»^(٣)، ولم تكن أسفل الدور تسكن، وربما سكن الدار الواحدة المائتان من الناس^(٤).

ويقول ناصر خسرو:

«وتبدو مصر من بعيد كأنها جبل، وبها بيوت من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبع طبقات.. وبها أسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائماً، لأن ضوء الشمس لا يصل إلى أرضها»^(٥).

ثم يروى بعد ذلك أن بعض الناس كانت له دار من سبع طبقات فأصعد إلى سطحها عجلًا صغيراً، وغذاه حتى غدا ثوراً، وركب فى السطح ساقية يديرها الثور، فصعد الماء إلى السطح الذى غرس فيه شجر البرتقال من الحلو والمالح والموز وأشجاراً أخرى مثمرة، وزرع فيها الأزهار والرياحين من سائر الأنواع.

وقد قامت مصلحة الآثار العربية فى أوائل هذا القرن بحفائر فى مصر العتيقة لدراسة الآثار الباقية لمدينة الفسطاط ومبانيها، ووضعت رسوماً مختلفة لما وجدته من بقايا المنازل بهذه المدينة، ومنها يمكن أن نتصور هذه المنازل كما كانت «قطعاً عظيمة من البناء قائمة على غير استواء ولا نظام، تدعمها أعمدة رومانية، لا شىء فيها من الزينة ولا من جمال التنسيق، تشبه كل الشبه ما هو موجود - أو كان موجوداً - فى مدينة رشيد من البناء فى العصر العثمانى»^(٦).

(١) بقر: فتح العرب لمصر، الترجمة العربية، ص ٢٩٨.

(٢) متر: الحضارة العربية، ٢، ص ٢٢٧.

(٣) صحح الأعشى: ٣، ص ٢٢٧.

(٤) الأصبخري: ص ٤٩، وابن حوقل: ص ٩٦، والمقدسى: ص ١٩٨.

(٥) ناصر خسرو: سفر نامه، الترجمة العربية للدكتور يحيى الخشاب، ص ٨٥.

(٦) عبد الرحمن زكى: القاهرة، ج ١، ص ١٤.

(ب) نمو المدينة

شرقاً وغرباً

تقدمة :

كان من أهم ما يميز مدينة الفسطاط عند تأسيسها أنه روعي أن يكون في أحد أطرافها فضاء يسمح لها بالنمو والزيادة في مستقبل أيامها ، ذلك الطرف هو الشمال الشرقي للمدينة ، وفيه بنيت مدينة العسكر ، ثم قامت مدينة القطائع - عاصمة الطولونيين - ، ثم أنشئت القاهرة - عاصمة مصر منذ الفتح الفاطمي حتى اليوم - ، وقد امتدت القاهرة في اتساعها في العصر الحديث في هذا الاتجاه ذاته ، فبنيت في شماليها الشرقي العباسية ، ثم مصر الجديدة .

ولم يكن هناك مجال لامتداد المدينة في الجهة الشرقية البحتة ، إذ كان يحول جبل المقطم دون الامتداد في هذه الناحية ، فاكتفى المسلمون ببناء مقابر موتاهم في سفح هذا الجبل . وفي الجنوب امتدت المدينة إلى حيث يمكن أن تمتد ، فكان حدها الجنوبي بركة الحبش ، وما يليها من أراض زراعية .

وكان النيل يقوم حاجزاً طبيعياً منع امتداد المدينة نحو الغرب ، ولكنه لم يبق كذلك مدة طويلة ، إذ لم يلبث سكان المدينة بعد نموها السريع أن عبروا النيل إلى الجزيرة ، فاتخذوها لهم سكناً ومنتزهاً . وبنى فيها الولاة والأفراد والخلفاء القصور . وأنشأوا البساتين ، ثم لم يلبثوا أن عبروا النيل مرة أخرى إلى الجزيرة ، حيث استقروا هناك إلى جانب القبائل العربية الأخرى التي تخيرت الجزيرة سكناً لها عند تأسيس الفسطاط ، كما سبق أن ذكرنا .

١ - نمو المدينة شرقاً

(أ) العسكر

ظلت الفسطاط - بعد نموها السريع - العاصمة الوحيدة لصر الإسلامية ، ومقر قضاتها وجنودها مدة مائة وثلاثة عشر عاماً وسبعة أشهر ، تولى حكم مصر في خلالها تسعة وعشرون أميراً من قبل الخلفاء الراشدين والأمويين ، أولهم عمرو بن العاص ، وآخرهم صالح بن علي العباسي أميرها من قبل الخليفة العباسي الأول أبي العباس السفاح ، ومن بعده بنيت العاصمة الجديدة (العسكر) ، وأصبحت كضاحية عسكرية للفسطاط ، ينزل بها الولاة من قبل الخلفاء العباسيين .

كان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قد فر إلى مصر منهزماً أمام جيوش العباسيين ، ونزل بالفسطاط ، وتبعه إلى مصر القائد العباسي صالح بن علي بجيشه ، ففر مروان مرة أخرى من الفسطاط ، ولكنه أشعل النار قبل أن يفر في بعض مباني المدينة ، كما أحرق الجسر الذي يصلها بجزيرة الروضة ، وانتقل إلى شاطئ النيل الغربي متجهاً نحو الجنوب ، وتبعه القائد العباسي حتى أدركه عند قرية بوصير ، وقتله بعد القبض عليه .

وكما انتقلت الخلافة العباسية من دمشق إلى بغداد فاتخذتها حاضرة لها ، كذلك كره ولاة العباسيين في مصر أن ينزلوا بالعاصمة القديمة الفسطاط . وقد يكون ذلك لأن الحريق خرب دار الإمارة بالفسطاط وشطرًا كبيراً من المدينة ، أو لأن الفسطاط ضاقت بعساكر العباسيين ، أو لأن الدولة الجديدة أرادت أن تتخذ لها عاصمة جديدة ، شأن الدول الجديدة في الشرق منذ أقدم العصور .

وبدأ القائدان العباسيان صالح بن علي وأبو عون في بناء المدينة الجديدة حيث نزلاً بعساكرهما في الشمال الشرقي للفسطاط ، ولذلك سميت المدينة بالعسكر (أو المعسكر) ، وكان هذا المكان يعرف عند تأسيس الفسطاط باسم الحمراء القصوى ، وكانت قد نزلت به ثلاث قبائل من العرب ، وهم : بنو يشكر بن جزيمة من لخم ، وبنو الأزرق - وهم من الروم - وبنو روبييل (وكان يهودياً فأسلم)^(١) .

و كان أفراد هاتين القبيلتين الأخيرتين - كما يقول ابن دقماق - (ممن سار مع عمرو بن العاص من الشام إلى مصر من عجم الشام ممن كان رغب في الإسلام من قبل اليرموك ومن أهل قيسارية وغيرهم)^(٢) .

(١) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٥ ، وانظر القلقشندي : صبح الأعشى : ج ٣ ، ص ٣٢٩ ، حيث يقول (سميت بذلك لنزول الروم بها وهم حمر الألوان).

(٢) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٥ ، وانظر القلقشندي : صبح الأعشى : ج ٣ ، ص ٣٢٩ ، حيث يقول (سميت بذلك لنزول الروم بها وهم حمر الألوان).

ويقال إن هذه الخطة سميت بالحمراء (لنزول الروم بها)^(١) وكانت هذه الخطة قد اندثرت بمرور الزمن حتى صارت صحراء ، وفيها نزل صالح بن علي بجنوده حتى ملأوا الفضاء - كما يقول المقریزی - . وفي سنة ١٣٣هـ أمر أبو عون - والى مصر - أصحابه بالبناء فيها .

وكانت العسكر يحدها جنوباً كوم الجارج ، حيث تمتد الآن قناطر المجرى (العيون) وشمالاً شارع مراسينا إلى ميدان السيدة زينب ، حيث قناطر السباع أمام المشهد الزينبي ، وغرباً بين شارع السد والديورة ، وكانت العسكر فى هذا الحد تمتد على شاطئ النيل ، لأن النيل كان فى ذلك الوقت أقرب إلى الشرق من موضعه الحالى ، لأنه كان يجرى بجانب المرتفع المشيد عليه جامع عمرو بن العاص ، ثم ابتعد عنه على توالى الزمن نحو خمسمائة متر .

وكان الحد الشرقى خطاً تصورياً يمتد من مصطبة فرعون بجوار مسجد الجاولى بشوارع مراسينا إلى باب السيدة نفيسة^(٢) . وقد بنيت فى العسكر بعد ذلك دار الإمارة ومسجد جامع عرف باسم جامع العسكر ، ودار للشرطة سميت (بالشرطة العليا) تمييزاً لها عن الشرطة السفلى بالفسطاط ، وأصبح الولاية ينزلون منذ ذلك الحين بالعسكر دون الفسطاط ، وصار الناس - كما يذكر المقریزی - يقولون من يومئذ : (كنا بالعسكر ، وخرجنا إلى العسكر ، وكتب من العسكر، وصار مدينة ذات محل وأسواق ودور عظيمة)^(٣) .

وفى هذه المدينة أيضاً بنى أحمد بن طولون - فيما بعد - بيمارستانة بالقرب من بركة قارون التى بنى إلى جانبها كافور الإخشيدي كذلك داراً لسكنه ، صرف عليها مائة ألف دينار ، (وصار العسكر مدينة ذات أسواق ودور عظيمة)^(٤) .

وسكن العسكر خمسة وستون والياً حكموا مصر نيابة عن خلفاء بنى العباس لمدة ١١٨ سنة ، حتى ولى أحمد بن طولون فأنشأ مدينته الجديدة للقطائع ، وبانتهاء دولة بنى طولون هدمت القطائع ، وعاد الولاية - وأولهم محمد بن سليمان - إلى دار الإمارة فى العسكر ، إلى أن قدم القائد جوهر وبنى القاهرة ، فهجرت العسكر ودار إمارتها ، ونزل خلفاء الفاطميين فى القصر الكبير بالقاهرة .

وقد استمرت العسكر عامرة بمبانيها وأسواقها حتى بدء الدولة الفاطمية ، إلا أنه منذ بنيت القطائع (هجر اسم العسكر وصار يقال مدينة الفسطاط والقطائع وربما قيل العسكر أحياناً)^(٥) .

(١) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٥ ، وانظر القلقشندي : صبح الأعشى : ج ٣ ، ص ٣٢٩ ، حيث

يقول (سميت بذلك لنزول الروم بها وهم حمر الألوان).

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .

(٣) المقریزی : الخطط ، ج ٢ ، ص ٨٩ .

(٤) النجوم الزاهرة : ج ١ ، ص ٣٢٧ .

(٥) المقریزی : الخطط : ج ٢ ، ص ٩٠ .

(ب) القطنع

لما ولي أحمد بن طولون على مصر ، اتخذ لنفسه جيشًا كبيرًا كان معظمه من السودانيين والروم والأتراك ، فضاقت بهم الفسطاط والعسكر ، فأراد أن يبني لهم عاصمة جديدة ، وبناها في الفضاء الذى كان بين العسكر وبين جبل المقطم ، وكانت تشغله قبل ذلك مقابر قديمة للنصارى واليهود ، فأمر بحرثها .

وبنى فيها قصره العظيم ، وشيد جامعه المعروف باسمه عندما ضاق بجنده وحاشيته جامعًا الفسطاط والعسكر . ويجوار المسجد بنى دارًا جديدة للإمارة فى جهته القبلىة ، ولها باب فى جدار الجامع يخرج منه إلى المقصورة المحيطة بمصلى الأمير إلى جوار المحراب . وجعل بين القصر والمسجد ميدانًا كبيرًا لسباق الخيل وعرض الجند ، ثم أمر غلمانته وأتباعه أن يختطفوا لأنفسهم فى المدينة الجديدة (فاختطفوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط)^(١) .

وسميت المدينة الجديدة بالقطنع ، لأنها قطعت وقسمت على الجند ، وسميت كل قطعة باسم من سكنها ، فكانت للنوبة قطيعة ، وللسودان قطيعة ، وللروم قطيعة ، .. وهكذا . وبنى القواد فيها قصورا لسكنهم ، فعمرت المدينة واتسعت (وتفرقت فيها السكك والأزقة ، وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران وسميت أسواقها ، فقيل : سوق العيارين - وكان يجمع العطارين والبزازين - وسوق القامين - ويجمع الجزارين والبقالين والشوايين - فكان فى دكاكين القامين جميع ما فى دكاكين نظرائهم فى المدينة وأكثر وأحسن ، وسوق الطباخين - ويجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين - ولكل من الباعة سوق حسن عامر ، فصارت القطنع مدينة كبيرة)^(٢) ، (وتزايدت العمارة حتى اتصلت بالفسطاط ، وصار الكل بلدًا واحدًا)^(٣) .

وكان موضع مدينة القطنع : من قبة الهواء - التى بنيت مكانها قلعة الجبل فيما بعد - إلى مسجد ابن طولون ، وهذا طولها . وأما عرضها ، فكان يبدأ من الرميلة إلى ما يعرف الآن بحى زين العابدين ، وكانت مساحتها ميلًا فى ميل .

وتشبه القطنع مدينة سامرا من أوجه كثيرة ، فإن الخليفة العباسى المعتصم كان قد رأى بعد أن صعب عليه التوفيق بين سكان بغداد وجنده من الأتراك أن يبني مدينة جديدة ، فأمر قائده أشناس ، فبنى له مدينة سامرا ، وأسكنها الجند الأتراك . وكذلك فعل أحمد بن طولون ، فقد كان جيشه كبيرًا ويتكون من عناصر أجنبية كالروم والأتراك والسوادانيين ، فضاقت بهم

(١) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

(٢) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ؛ وانظر أيضًا :

St. lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages. P. 63.

(٣) الفلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٣٢ .

الفسطاط والعسكر ، فأسرع ابن طولون وبنى لهم العاصمة الجديدة ، وقسمها إلى قطائع ، لكل فرقة من جنس واحد قطيعة خاصة بها . وكان طراز العمارة والزخرفة يشبه تماما الطراز الذى اتبع فى بناء وزخرفة دور سامرا ، تشهد بذلك الزخارف الجصية التى عثر عليها فى جدران دار من العصر الطولونى كشفتها دار الآثار العربية عام ١٩٣٢ م . وكذلك نلاحظ أن مئذنة الجامع الطولونى بنيت على نمط مئذنة جامع سامرا . وهكذا بنيت العاصمة الطولونية مشابهة تمام الشبه لعاصمة الخلافة العباسية الجديدة (سامرا) ، ولم يكن قد مضى على تأسيسها وقتذاك أكثر من أربع وثلاثين سنة^(١) .

ولما انتهى أمر الدولة الطولونية إلى الضعف ، دخل مصر القائد العباسى محمد بن سليمان فى سنة ٢٩٢هـ (٩٠٤م) . فأشعل النار فى القطائع ، وانتشر أصحابه فيها وفى الفسطاط ينهبون الدور والمساكن ، وكسروا السجون وأطلقوا سراح من فيها ، واستباحوا النساء . وهتكوا الرعية ، وأخرجوا الناس من دورهم ، وقتل ابن سليمان عددا كبيرا من الفرقة السودانية إحدى فرق الجيش الطولونى .

وفى السنة التالية (٢٩٣هـ - ٩٠٥م) أمر الحسين بن أحمد المادرائى - متولى خراج مصر - بهدم الديوان ، فهدم وبيعت أنقاضه . وهكذا خربت القطائع وهدمت دورها ، وكانت تزيد على ألف دار (نزهة للناظرين ومحدقة بالجنان واليساتين)^(٢) .

هذا وقد قضت المجاعة العظمى التى حدثت فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر على البقية الباقية من القطائع ، حتى اضطر رجال الدولة إلى بناء سور يبتدئ من باب زويلة بالقاهرة وينتهى عند جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ليستر خلفه خرائب القطائع والعسكر ، حتى لا يتأذى الخليفة الفاطمى برؤيتها أثناء زهابه من القاهرة إلى الفسطاط .

ثم أقبل الناس على هذه الخرائب يأخذون من أنقاضها كلما احتاجوا . وتحولت المساحة الكبيرة بين القاهرة والفسطاط ، فأصبحت بمرور الزمن صحراء جرداء مرة أخرى ، وعاد الفسطاط مركزها القديم الممتاز ، وظلت سنين طويلة - رغم وجود القاهرة - المدينة الكبرى الآهلة بالسكان ، العامرة بالأسواق ودور التجارة والصناعة والمساجد والمدارس والحمامات .

(١) راجع كتاب (فى مصر الإسلامية) ، ص ١٠٨ ، والفصل الخاص بالفن الطولونى ، من كتاب الدكتور زكى

محمد حسن Les Tulunides. Paris, 1933 .

(٢) المقرئى : الخطط ، ج ، ص ١٢٤ .

(ج) القاهرة

عادت مصر بعد زوال دولة الطولونيين إلى تبعيتها السابقة للخلافة العباسية ، ثم استقل بها الإخشيديون بعد سنوات ، وحكموها فى المدة بين ٣٢٣هـ و ٣٥٨هـ .

وفى السنة الأخيرة ، انتهى أمر هذه الدولة كذلك إلى الضعف والانحلال ، ونجح الفاطميون فى غزوها بعد محاولات كثيرة ، فاستولى جوهر على الإسكندرية ، ودخلت جيوشه القسطنطينية فى شعبان سنة ٣٥٨هـ (يوليو سنة ٩٦٩م) ، ثم عسكرت فى السهل الرملى الواقع شمال المدينة ، وكان يحد هذا السهل من الشرق جبل المقطم ، ومن الغرب خليج أمير المؤمنين ، ولم يكن بهذا السهل إلا دير مسيحي قديم اسمه دير العظام ، وبعض المباني المتصلة ببستان كافور ، وحصن صغير يسمى قصر الشوك .

وفى مساء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ وضع جوهر أساس المدينة الجديدة (القاهرة)^(١) .

(١) انظر الحديث المفصل عن القاهرة فى الكتاب الثانى من هذا المجلد الخاص بالعصر الفاطمى .

٢ - نمو المدينة غرباً (أ) جزيرة الروضة

تقابل الفسطاط على الضفة الغربية للنيل جزيرة قديمة يحيط بها الماء، ويفصل بينها وبين الفسطاط من ناحية وبينها وبين الجزيرة من ناحية أخرى.

وكان على الجزيرة حصن روماني قديم يعتبر ملحقاً لحصن بابلليون وجزءاً من وسائل الدفاع عن رأس الدلتا، وقد خرب عمرو بن العاص بعض أبراج هذه الجزيرة وأسوارها^(١).

وكان يربط الجزيرة بالفسطاط في العصر الإسلامي جسر يمر عليه الناس والدواب كما كان يربطها بالجزيرة جسر آخر، «وكان هذان الجسران من مراكب^(٢) مصطفة بعضها بحذاء بعض، وهي موثقة، ومن فوق المراكب أخشاب ممتدة فوقها تراب، وكان عرض البحر ثلاث قصبات»^(٣).

وكانت الروضة تعرف في العصر الإسلامي الأول باسم: الجزيرة أو جزيرة مصر، ثم بنى عليها أحمد بن طولون حصناً، فعرفت بجزيرة الحصن. كما كانت تسمى بجزيرة الصناعة لوجود دار الصناعة بها.

ولما ولي محمد بن طغج الإخشيد على مصر، نقل الصناعة إلى ساحل الفسطاط، وأنشأ بالجزيرة بستاناً سماه «المختار»، وجعل فيه داراً للغلمان، وداراً للنوبة، وخزائن للكسوة، وخزائن لطعام.

وفي العصر الفاطمي أنشأها الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي حدائق ومتنزهات، وسماها «الروضة» - فعرفت بهذا الاسم منذ ذلك الحين - وكان يتردد إليها كثيراً، فينتقل في السفن من دار الملك - وهي سكنه بالفسطاط - إلى الروضة، وفي نفس العصر بنى الخليفة الأمر بأحكام الله بجوار البستان المختار قصراً لمحبووبته البدوية «العالية» سماه الهودج.

وهكذا ظلت الجزيرة قروناً طويلة تعتبر كضاحية ملكية يبني فيها الأمراء والوزراء والخلفاء حصونهم وقصورهم وبساتينهم، كما كانت أيضاً سكناً لمن ضاقت بهم الفسطاط، ومتنزها جميلاً

(١) المقرئى: الخطط، ج ٣، ص ٢٩٩.

(٢) يقول (ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ٩٦) إن هذا الجسر كان يتكون من نحو ثلاثين سفينة، ويذكر ناصر خسرو في رحلته أن الجسر كان مكوناً من ٣٧ سفينة.

(٣) المقرئى: الخطط، ج ٣، ص ٢٧٦، وانظر أيضاً: القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣، ص ٣٣٥.

لساكنى العاصمة وزاد فى أهميتها أنها كانت مقرًا لمقياس النيل الذى بناه أسامة بن زيد التنوخى سنة ٩٧هـ بأمر الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك، ولذلك تعرف أيضًا باسم «جزيرة المقياس». ويذكر الشريف الإدريسي أن طول الجزيرة كان نحو ميلين، وأن عرضها مقدار رمية سهم^(١).

وكانت النصرارى تتولى قياس النيل عند فيضانه والإشراف على المقياس، حتى كان عهد الخليفة المتوكل، فعزلهم ورتب مكانهم عبد الله بن عبد السلام ابن أبى الرداد، واستمر بنوه يتولون هذه الوظيفة حتى القرن العاشر الهجرى تقريبًا (١٦م).

وفى أواخر العصر الأيوبي، بنى الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة فى هذه الجزيرة أسكنها مماليكه البحرية، وذلك فى سنة ٦٣٨ هـ، وقد بقيت هذه القلعة تعرف باسم «قلعة المقياس» و «قلعة الروضة»، و «قلعة الجزيرة»، و «القلعة الصالحة»^(٢) - حتى هدمها المعز أيبك التركمانى وبنى من أنقاضها مدرسته المعزية بالقسوط.

ويذكر ابن حوقل الذى زار مصر حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى (١٠م) أنه كان بالجزيرة «أبنية حسنة ومساكن جليلة»^(٣)، كما يذكر الشريف الإدريسي أن بها المباني والمتنزهات ودار المقياس»^(٤).

ويقول المقرئزى إنها كانت: «متنزها مملوكيا ومسكنا للناس»^(٥)، وأنه كان فيها من البساتين والعمائر والثمار ما لم يكن فى غيرها»^(٦).

وقال الكندى: «ثم غلب عليها اسم الروضة لحسنها ونضارتها وإطافة الماء بها، وما بها من البساتين والقصور»^(٧).

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٢) المقرئزى، المخطط، ج ٣، ص ٢٩٧.

(٣) ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ٩٦.

(٤) الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ١٤٤.

(٥) المقرئزى: المخطط، ج ٣، ص ٢٩٧.

(٦) المقرئزى: المخطط، ج ٣، ص ٢٩٩.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٣٥.

(ب) الجيزة

وكانت الجيزة ضاحية أخرى من ضواحي الفسطاط في الجهة الغربية. وقد ذكرنا فيما سبق أن قبيلة همدان ومن الالها استحبت النزول بها عند تخطيط الفسطاط. وأن عمرًا بنى لهم فيها حصنًا^(١) تنفيذًا لأمر الخليفة عمر بن الخطاب.

وقد انضم إلى هذه القبائل في فترات مختلفة العرب الذين وفدوا على مصر ممن ينتمون إلى هذه القبائل، وبنيت فيها المساجد، وأهمها: مسجد همدان، والمسجد الجامع الذي بناه محمد ابن عبد الله الخازن سنة ٣٥٠ هـ بأمر الأمير على بن الإخشيد.

ثم انتقل إليها الناس بعد ازدحام الفسطاط بالسكان، فكانت فيها: «بساتينهم وضياعهم ومنتزهاتهم»^(٢).

وكانت بها «أبنية جليلة ومساكن»^(٣). وكان لها: «في كل يوم أحد سوق عظيم يجيء إليه من النواحي أصناف كثيرة جدًا، ويجتمع فيه عالم عظيم، وبها عدة مساجد»^(٤).

(١) يقول اليعقوبي في كتاب البلدان، ص ٣٣٠: «وابتنى حصن الجيزة في الجانب الغربي من النيل: وجعله

مسلحة للمسلمين، وأسكنه قومًا»، أنظر كذلك: المقرئ، الخطط، ج ١، ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

(٢) ابن رسته: الأعلام النفسية، ص ١١٦.

(٣) ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ٩٦.

(٤) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٣٣٢.

(ج) نمو المدينة نفسها

عرفنا كيف امتدت المدينة شمالاً وشرقاً ثم غرباً، حتى إذا كان القرن الرابع الهجري كانت هذه الضواحي جميعاً قد اتصلت بالمدينة الأصلية، وأصبح يطلق على الجميع لفظ «مصر» أو لفظ «الفسطاط»، غير أن الضواحي التي بنيت في جهتها الشمالية الشرقية كانت ضواحي ملكية بنيت لسكن الأمراء والجنود، وقد كان لهذا أثره وفضله، فإن سكن الجنود خارج المدينة منع ما كان يمكن أن ينشأ بينهم وبين السكان المدنيين من نزاع أو تخاصم يؤدي إلى الفوضى والشغب، كما كان يحدث دائماً في عاصمة الخلافة العباسية بغداد، فلذلك عاش سكان الفسطاط في أمن وهدوء مما جعل المدينة تزدهر وتنمو صناعياً وتجارياً، ويزداد عدد سكانها، ومما جعل انتقام الدول المتعاقبة ينصب على هاته الضواحي فيهدمها ويحرقها ويخربها تاركاً المدينة الأصلية على حالها، لهذا عاشت الفسطاط عمراً طويلاً، وفنيت فيها هذه المدن الجديدة.

أما الضاحيتان الغريمتان فكانتا تمتازان بكثرة الحقول والرياض والبساتين، فكانهما كانتا متنزهين جميلين لسكان الفسطاط في مختلف العصور.

سكان المدينة:

سكن المدينة عند إنشائها القبائل العربية التي كانت مع عمرو، ومعظمها كما أسلفنا من اليمن، وقسمت الخطط بينها، فكانت أهمها:

خطة أهل الولاية وكان أصحابها من قريش ومن الأنصار ومن خزاعة وأسلم وغفار وجهينة وثقيف، وعدة قبائل أخرى.

- وخطة مهرة وتنتسب لحمير.

- وخطة تجيب من كندة.

- وخطط الليف، وسموا بالليف لالتفاف بعضهم ببعض، وكان عامتهم من الأزد، ومن غسان ومن شجاعة.

- وخطط أهل الظاهر، وسموا بذلك لأن هذه القبائل كانت بالإسكندرية ثم وفدت بعد أن اختطت المدينة ونزل الناس، فتخاصموا إلى عمرو، «فقال لهم معاوية بن حديج - وكان ممن يتولى الخطط يومئذ.

«أرى لكم أن تظهروا على أهل هذه القبائل فتتخذوه منزلاً»^(١).

(١) ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٣ - ٥.

- خطط الصدف، وهم بطن من كنده.
- خطط خولان.
- خطط الفارسيين، وهم قوم من بقايا جند بأذان عامل كسرى على اليمن قبل الإسلام، أسلموا بالشام ورغبوا في الجهاد، فنفروا مع عمرو بن العاص فاخبطوا بها.
- خطط تحصب، وهو حى من اليمن.
- وأخيراً خطط الحمراوات الثلاث، وهم من الروم الذين أسلموا في الشام وجاءوا إلى مصر في جيش عمرو.

وواضح من ذكر أسماء هذه الخطط أن سكان المدينة في عهدها الأول كانوا جميعاً من العرب ومعهم فرق من الفرس^(١) والروم^(٢) الذين أسلموا في الشام.

وأصبحت المدينة أيضاً سكن قواد العرب وكبار الصحابة الذين وفدوا على مصر، فكان بها سكن عمرو بن العاص، وابنه عبد الله^(٣)، وسكن الزبير بن العوام^(٤)، وخارجة من حذافة، وشريك بن سمى، وعبد الله بن عمر بن الخطاب^(٥)، وعبد الله بن حذافة، وسعد بن أبى وقاص^(٦) ومسلمة بن مخلد^(٧)، وعقبة بن عامر الجهني^(٨).

ثم ظلت الفسطاط سكناً لكبار رجال الدولة وقضاةها ووزاراتها ورؤساء دواوينها وعلمائها وفقهائها حتى بعد أن بنيت القاهرة وكبرت وازدهرت، فكان يسكن بها بنو عبد الحكم، ونزل بها الإمام الشافعى أثناء إقامته بمصر، وكانت بها دار الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى الوزير الفاطمى، ودار الحسين بن النعمان القاضى الفاطمى كذلك.

وكانت فى المدينة - شأن كل مدينة كبيرة - أحياء خاصة كان يسكنها عليه القوم وأثريائهم ووجوههم، وأحياء أخرى خاصة لسكن عامة الناس وفقرائهم وأثريائهم. وكان أهم الأزقة

(١) كان بالفسطاط «زقاق ابن الخثن، وكان من جملة الفرس، توفى سنة ٣٧٨ هـ»، انظر: ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٢٣.

(٢) ذكر ابن دقماق، نفس المرجع ص ٥١، أنه كان بالفسطاط «سقيفة ابن بنه بالحمراء»، وكان ابن هذا صاحب لواء الحمراء زمن الفتح، ونسبت هذه السقيفة إليه واسمه عبد الرحمن، وكان من الروم، وحضر أبوه أيضاً الفتح».

(٣) ابن دقماق، نفس المرجع، ص ٧.

(٤) ابن دقماق، نفس المرجع، ص ٨، ١٤.

(٥) نقل السيوطى: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٧٢-١٠٤ مختصراً لكتاب الربيع الجيزى المسمى «السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة».

(٦) ابن دقماق، نفس المرجع، ج ٤، ص ١٠.

(٧) نفس المرجع، ص ١١.

(٨) نفس المرجع، ص ١١.

وأكثرها وأعمرها قديماً زقاق القناديل، لأنه - كما تذكر المراجع - «كان منازل الأشراف وكان على أبوابهم القناديل»^(١) وكانت به دار عمرو بن العاص.

وكان درب القطلاني «سكن جماعة من الأكابر»^(٢)، ودرب المعاصر «سكن به أكابر أعيان المصريين»^(٣).

وزقاق البواقيل «سكنه جماعة أكابر علماء منهم القرطبي وابن الرفعة وقاضي القضاة تقي الدين بن درش»^(٤). وزقاق ابن جمح «سكنه جماعة من السادات والعلماء»^(٥) وخوخة باسم الله «سكن داخلها جماعة رؤساء»^(٦) وخوخة السراج سكنها «جماعة من الأعيان وجماعة من الأخيار»^(٧).

أما خوخة سوسو فكانت «سكن عوام مصر»^(٨).

وكذلك «عقبات كوم ابن غراب» «كانت سكن أوباش العوام»^(٩).

كما كان «قوم الشقاف بخراب المدينة» يسكنه «عوام الناس»^(١٠).

وهذه قسمة طبيعية تقتضيها طبيعة المجتمع في كل مدينة.

غير أنا نلاحظ أن السكان لم يستمروا دائماً عرباً، فقد سكن المدينة بمرور الزمن أجناس مختلفة حتى أصبحت كالقاهرة أو الإسكندرية اليوم تموج بأخلاق الناس من كل جنس، وهذا وضع توجيه طبيعة البلد كعاصمة أولاً وكمدينة صناعية تجارية ثانياً.

فكان في المدينة بعد نموها:

- «زقاق مسجد القبة بقصر الشمع.. وسكنه جماعة من أعيان القبط»^(١١).

- ودرب السلسلة وكان يسكن به جماعة من أكابر القبط»^(١٢).

(١) نفس المرجع والجزء، ص ١٣.

(٢) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢١.

(٣) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٦.

(٤) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٦.

(٥) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ١٥.

(٦) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٣١.

(٧) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٣٢.

(٨) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٣٠.

(٩) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٥٢.

(١٠) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٥٣.

(١١) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ١٦.

(١٢) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٦.

- وكان بالمدينة «زقاق اليهود.. وكان بصدرة كنيسة لليهود قريبة من قصر الشمع»^(١).
- كما كان بها أيضاً دار رئيس اليهود - أى حاخامهم - وسويقة لليهود ومجزرة خاصة بهم^(٢).

- وسقيفة خلف المنجم.. وعرفت بخلف اليهودى المنجم، لأنه أقام بجوارها فى حانوت
ينجم ما يزيد على أربعين سنة إلى أن هلك»^(٣).
- و «سقيفة ابن الغارق.. يعلوها ملك ابن الغارق اليهودى المتطبب، وهى أمام دار رئيس
اليهود»^(٤).

كذلك كانت الفسباط كعبة التجار من مختلف الأجناس، وسكنها طوائف منهم، وكانت كل
طائفة من جنس واحد تختار لها حياً خاصاً بها.

فكان بالفسباط «حارة الهنود، وعرفت بسكن الهنود»^(٥).

وزقاق المغاربة^(٦)، وسوق المغاربة^(٧)، وسويقة المغاربة^(٨).

وزقاق الأكراد وعرف بسكن الأكراد^(٩).

وسويقة العراقيين^(١٠).

وفندق عمارة، وكان ينزله الشاميون^(١١).

ودرب الزيتون.. وهو سكن الشاميين والمشاركة^(١٢).

وهكذا نمت المدينة وكبرت أسواقها وسوقاتها وقيسارياتها وفنادقها، وتعددت حواربها
ودروبها وأزقتها، وكثرت مصانمها ومطابخها ومتاجرها، وعلت مبانيها وأصبحت تبنى من
الآجر والحجر بعد أن كانت تبنى من اللبن، وسكنتها إلى جانب المصريين أجناس كثيرة
مختلفة.

(١) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ١٥.

(٢) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٥.

(٣) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٤٩.

(٤) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٤٩.

(٥) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ١٣.

(٦) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ١٥.

(٧) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٥٣.

(٨) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٦ و ٣٢.

(٩) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٠.

(١٠) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٣٤.

(١١) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٤٠.

(١٢) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٧.

ولكن المؤرخين مع عنايتهم الكبيرة بوصف الفسطاط وغيرها من المدن الإسلامية لم يعنوا أبداً بإحصاء سكان أى مدينة، ولكننا نستطيع أن نتلمس الشواهد لنصل إلى تقرير بعض الإحصاءات التى قد تعيننا على معرفة تقريبية لعدد السكان بعد نمو المدينة وازدحامها. فالمقريزى يذكر أنه كان بالفسطاط دار تسمى دار عبد العزيز، كان يصب لمن بها فى كل يوم أربعمائة راوية ماء، وحسبك من دار واحدة يحتاج أهلها فى كل يوم إلى هذا القدر من الماء^(١)، وكان فى هذه الدار خمسة مساجد وحمaman وعدة أفران يخبز بها عجين أهلها^(٢).

وذكر أيضاً - نقلاً عن ابن المتوج - أن عدد الأسطال التى كانت بالطاقت المطة على النيل ستة عشر ألف سطل مؤبدة ببكر وأطناب، بها ترخى وتملاً.

وقال أيضاً - نقلاً عن ابن المتوج - الذى يقول: أخبرنى من أتق به أنه كان «بالفسطاط فى جهته الشرقية حمام من بناء الروم عامرة زمن أحمد بن طولون.. دخلتها فى زمن خمارويه بن أحمد بن طولون وطلبت بها صانعاً يخدمنى، فلم أجد فيها صانعاً متفرغاً لخدمتى، وقيل لى: إن كل صانع معه اثنان يخدمهم وثلاثة، فسألت كم فيها من صانع؟ فأخبرت أن بها سبعين صانعاً قل من معه دون ثلاثة، سوى من قضى حاجته وخرج.. فخرجت ولم أدخلها لعدم من يخدمنى بها، ثم طفت غيرها فلم أقدر على من أجده فارغاً إلا بعد أربع حمامات، وكان الذى خدمنى فيها نائباً..»^(٣).

وذكر القضاعى أنه كان بالفسطاط: «من المساجد ستة وثلاثون ألف مسجد، وثمانية آلاف شارع مسلوک، وألف ومائة وسبعون حماماً، وأن حمام جنادة - فى القرافة - ما كان يتوصل إليها إلا بعد عناء من الزحام»^(٤). ويعقب المقريزى على هذا بقوله: «فانظر - رحمك الله - تعرف من ذلك كثرة ما كان بمصر من الناس»^(٥).

(١) المقريزى الخطط، ج ٢، ص ١٣١ و ١٣٥.

(٢) المقريزى الخطط، ج ٢، ص ١٣١ و ١٥٢.

(٣) المقريزى الخطط، ج ٢، ص ١٣١.

(٤) المقريزى: الخطط، ص ٢٩ و ١٣١.

(٥) المقريزى: الخطط، ص ٢٩ و ١٣١.

الباب الثانى

تكوين الشعب المصرى الجديد

بعد الفتح العربى

obeikandi.com

تكوين الشعب المصرى الجديد

بعد الفتح العربى

كان الجيش العربى الذى قام بفتح مصر يتكون من نحو اثنى عشر ألف مقاتل من القبائل العربية المختلفة، وبعد الفتح ظل العرب يرحلون إلى مصر فى أفواج كثيرة متتابعة، كان أكبرها هجرة قبائل من قيس فى سنة ١٠٩ هـ فى خلافة هشام بن عبد الملك وولاية الوليد بن رفاة على مصر.

ويبدو أن هجرة هذه القبائل من قيس كانت تتصل بالسياسة العامة لهشام فى الدولة كلها، إذ كان هشام يرمى إلى إضعاف شأن القبائل اليمنية بالإعلاء من مركز القيسية، يقول الكندى إن عبيد الله بن الحبحاب لما ولى خراج مصر من قبل هشام كتب إليه يقول:

«إن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - قد شرف هذا الحى من قيس ونعشهم ورفع من ذكركم، وإنى قدمت مصر أر لهم فيها حظاً إلا أبيتاً من فهم، ومنها كور ليس فيها أحد، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجاً، وهى ببلييس، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل، فكتب إليه هشام: أنت وذلك»^(١).

ثم يذكر الكندى بعد ذلك أن هشاماً أرسل إلى البادية فاستقدم أربعمئة أهل بيت من بطون قيس المختلفة وأوفدها إلى مصر، فنزلت بالحواف الشرقى حول بلييس.

«وأمرهم بالزرع، ونظر إلى الصدقة من العشر فصرفها إليهم، فاشتروا إبلاً، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم، وكان الرجل يصيب فى الشهر العشرة دنانير وأكثر وأقل، ثم أمرهم باشتراء الخيول، فجعل الرجل يشتري المهر، فلا يمكث إلا شهراً حتى يركب، وليس عليهم مؤونة فى أعلاف إبليهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم. فلما بلغ ذلك عامة قومهم، تحمل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية، فكانوا على مثل ذلك، فأقاموا سنة، فأتاهم نحو خمسمائة أهل بيت، فمات هشام وببلييس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس»^(٢).

واستمر توافد قيس على مصر ونزولهم بأرضها طوال الفترة الباقية من عصر بنى أمية، وانتهى عهد الدولة بموت مروان بن محمد بمصر:

«ثلاثة آلاف أهل بيت، ثم توالدوا، وقدم عليهم من البادية من قدم»^(٣).

(١) الكندى: الولاة والقضاة، طبعة جست، ص ٧٦.

(٢) الكندى: المرجع السابق، ص ٧٧، وانظر المقرئى: الخطط، مطبعة النيل، ج ١، ص ١٢٨.

(٣) الكندى: ص ٧٧.

واستمرت رحلة القبائل العربية وهجرتهم متتابعة متلاحقة فى العصور التالية، وخاصة فى عصر الدولة الفاطمية. ففى خلافة المستنصر مثلاً عظم شان القبائل العربية النازلة فى جنوب الشام حول غزة، وكثرت ثوراتهم واشتدت وطأتهم على الولاة.

«فبعثت الوزير الناصر للدين أبو محمد الحسن بن على اليازورى إلیهم فى سنة ٤٤٢ هـ يستدعيهم، وأقطعهم البحيرة.. فاستسعت أحوالهم، وفخم أمرهم، وعظم شأنهم...»^(١).

ووفدت فى نفس العهد قبائل أخرى، غير أنها ما لبثت أن قامت ببعض الشغب والثورات، فنقلت الدولة بعض هذه القبائل - وخاصة قبيلتى بنى سليم وبنى هلال - إلى الوجه القبلى. وبعد قليل عمل الوزير اليازورى على نقل بنى هلال إلى شمال إفريقيا لدأبهم على إثارة الشغب، ورغبة منه فى الانتقام من بنى زيرى الذين خرجوا عن طاعة الفاطميين فى إفريقيا. وقدمت قبائل أخرى فى خلافة الفائز الفاطمى ووزارة الصالح طلائع بن رزيك، ونزلت فى منطقة دمياط والبرلس. ونزلت بطون من قبيلة جذام فى منطقة زفتى وميت غمر.

من هذا البيان الموجز يتضح أن الهجرات العربية الأولى استقرت فى جهات أسفل الأرض (الوجه البحرى)، فلما ضاقت هذه البلاد بسكانها نزلت القبائل العربية الوافدة ببلاد الصعيد، وانتشرت فى جميع نواحيه حول أسوان وجنوبها، وفى منفلوط وأسيوط والأشمونين وإخميم، وفى الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر، وخاصة صحراء عيذاب.

وكان العرب فى أول أمرهم جنوداً يقومون بالفتوح فى الأقاليم المجاورة أو بالدفاع عن مصر، وكانت منازلهم فى العاصمة (الفسطاط) أو فى الثغور كدمياط وتينيس ورشيد والإسكندرية، أو على الحدود فى الصحراء. فلما كثر عددهم وتوالت هجراتهم، اشتغلوا أيضاً بالرعى على حافتى الوادى. ثم لم تلبث أن اجتذبتهم الحياة فى وادى النيل نفسه، فأقبلوا عليه، واشتغلوا بالزراعة، واختلطوا بالأهلين. وظلت للعرب هذه الصفة - صفة الرعى أو الجنديّة - حتى كان عهد الخليفة العباسى المعتصم، وكانت أمه تركبة، فاستكثر من الجند الأتراك فى عاصمة الدولة، ثم لم يلبث أن أرسل إلى كيدر نصر بن عبد الله واليه على مصر (٢١٧هـ - ٢١٩هـ).

«وأمره بإسقاط من فى ديوان مصر من العرب وقطع أعطيائهم، ففعل ذلك...»^(٢).
ومنذ ذلك الحين أصبح جند مصر من العجم والسوالى. ولما ولى أحمد بن طولون على مصر استكثر من العبيد فى جيشه حتى بلغت عدة جنده زيادة على أربعة وعشرين ألف غلام تركى، وأربعين ألف أسود وسبعة آلاف حر مرتزق.

(١) المقرئى: البيان والإعراب عن نزل بأرض مصر من الأعراب، ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) الكندى: المرجع السابق، ص ١٩٣، والمقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٥١.

وبإسقاط العرب من ديوان الجند ومنع عطائهم انتشروا فى أنحاء مصر وتم اختلاطهم بالأهالى.

أما الأقباط فقد كانوا أكثرية وقت الفتح. يقول المقرئى:

«إعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى وهم على قسمين متباينين فى أجناسهم وعقائدهم: أحدهما أهل الدولة، وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم، ورأيهم وديانتهم بأجمعهم ديانة الملكية، وكانت عدتهم تزيد على ثلاثمائة ألف رومى، والقسم الآخر عامة أهل مصر، ويقال لهم القبط، وأنسابهم مختلطة، لا يكاد يتميز منهم القبطى من الحبشى من النوبى من الإسرائيلى الأصل، من غيره، وكلهم يعاقبة، فمنهم كتاب الملكة، ومنهم أهل الفلاحة والزرع، ومنهم أهل الخدمة والمهنة، وبينهم وبين الملكية - أهل الدولة - من العداوة ما يمنع مناكحتهم، ويجب قتل بعضهم بعضاً»^(١).

وقد درات الحروب بين العرب والروم وقت الفتح، أما القبط فكانوا عوناً للعرب، وبعد الفتح كتب عمرو أماناً لبنينامين بطرك الأقباط، فخرج من مخبئه فى الصحراء، وعاد إلى كرسى بطركيته بعد أن غاب عنه ثلاثة عشرة سنة، واعتبر الأقباط أهل ذمة، وفرض على كل من بلغ الحلم ديناراً^(٢) ويستثنى من هذه الضريبة النساء والصبية والشيوخ.

وظل الأقباط يدفعون هذه الضريبة دون أى شكوى نحو قرن من الزمان، فلما فكر بعض ولاة مصر فى زيادة مقدار الضريبة ولو بزيادة طفيفة كان الأقباط يقومون بثورات مختلفة، وكان الولاة يضطرون إلى العمل على إخماد هذه الثورات بالقوة والعنف.

١ - فى سنة ١٠٥ هـ كان الوالى على مصر من قبل الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك هو الحر بن يوسف، وكان عامل الخراج هو عبيد الله بن الحبحاب، فكتب إلى هشام أن أرض مصر تحتمل الزيادة، فزاد على كل دينار قيراطاً، فانتقضت بعض كور مصر (كورة تنو، وتمى، وقريب، وطرابية) وعامة الحوف الشرقى، فبعث إليهم الحر بن يوسف بأهل الديوان (أى بالجند من العرب) فأخضعوا الفتنة بعد قتل عدد كبير من الثائرين، وكان هذا الانتقاض فى سنة ١٠٧ هـ، وهو أول انتفاض للقبط^(٣) بعد الفتح العربى.

وواضح مما ذكر أن الزيادة كانت فى ضريبة الأرض لا ضريبة الرؤوس (أى الجزية)، وأنها كانت زيادة طفيفة تبلغ قيراطاً على كل دينار، وقد تكون دعت إليها حاجة البلد، كما أن

(١) المقرئى: الخطط، ج ٤، ص ٢٩٣.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص ٨٧.

(٣) الكندى: الولاة والقضاة، ص ٧٣ - ٧٤، والمقرئى: الخطط، ج ٤، ص ٣٩٤.

عامل الخراج ذكر للخليفة أن الأرض تحتل هذه الزيادة، ومع هذا فقد ثار القبط في بعض الكور وفي الحوف الشرقي، لأن المسائل المالية كانت دائماً - في كل العصور وفي كل البلاد - مسائل حساسة تثير شعور الشعوب.

٢ - وكانت فتنة القبط الثانية جزئية كذلك في بعض بلاد الصعيد، وذلك في سنة ١٢١ هـ في ولاية حنظلة بن صفوان الثانية على مصر من قبل هشام بن عبد الملك، يقول الكندي: «ثم انتقض أهل الصعيد، وحارب القبط عمالهم في سنة إحدى وعشرين ومائة، فبعث حنظلة بأهل الديوان، فقتلوا من القبط ناساً كثيراً واطفر بهم»^(١).

ولكن الكندي لم يذكر سبب هذه الفتنة، وإن كان الميرزى قد ذكر أن حنظلة عندما أتى مصر والياً للمرة الثانية تشدد على النصارى، وزاد في الخراج، وأحصى الناس والبهائم، وجعل على كل نصرانى وسماً - صورة أسد - وتتبعهم، فمن وجده بغير وسم قطع يده، فقد تكون هذه السياسة هي السبب في قيام هذه الفتنة.

٣ - وفي سنة ١٣٢ هـ عندما هزم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية أمام جيوش العباسيين، فر إلى مصر، وفي مدة وجوده بها ثار بعض القبط بمدينة رشيد، فبعث إليهم مروان بعثمان بن أبي نسعة فهزمهم^(٢). ولسنا نعرف أيضاً سبب هذه الفتنة، وقد يكون أقباط رشيد انتهزوا فرصة الفوضى التي صاحبت زوال دولة بنى أمية وقيام الدولة الجديدة فقاموا بهذه الفتنة.

٤ - وفي سنة ١٣٥ هـ في ولاية أبي عون من قبل العباسيين: «خرج أبو مينا القبطى بسمنود. فبعث إليه (أبو عون) بعبد الرحمن بن عتبة فقتل أبو مينا»^(٣).

وليس في المراجع تعريف بشخصية أبي مينا هذا، ولا ذكر لأسباب خروجه.

٥ - وفي سنة ١٥٠ هـ في ولاية يزيد بن حاتم على مصر (١٤٤هـ - ١٥٢هـ) من قبل الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور، خرج القبط بمدينة سخا، وانضم إليهم أهالى البلاد المجاورة، فأرسل إليهم يزيد فرقة من أهل الديوان. ولكن يبدو أن هذه الفتنة كانت قوية وخطرة. فقد قتل في المعركة بعض قواد العرب وجرح البعض الآخر، وانصرف الجيش إلى الفسطاط منهزمين^(٤).

(١) الكندي: الولاة والقضاة، ص ٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٦.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٤) المرجع السابق، ص ١١٦ - ١١٧.

٦ - وفي سنة ١٥٦ هـ فى ولاية موسى بن على على مصر من قبل أبى جعفر المنصور خرجت القبط ببليهب، فأرسل إليهم الوالى جنداً هزموهم.

٧ - وفى سنة ٢١٦ هـ فى ولاية عيسى بن منصور على مصر من قبل الخليفة المأمون، ثار سكان أسفل الأرض (الوجه البحرى) - عربياً وقبطاً - وكان سبب هذه الثورة - كما يذكر الكندى - «سوء سيرة العمال فيهم»^(١) وبذل الوالى عيسى بن منصور، والقائد العباسى الأفشين جهدهما لإخضاع هذه الثورة التى ظلت قائمة نحو ثمانية شهور - من جمادى الأولى إلى ذى الحجة من سنة ٢١٦ هـ - حتى اضطر الخليفة المأمون أن يأتى إلى مصر بنفسه لإخضاع هذه الثورة، وأخضعها وعاقب كلاً من الحاكم والمحكومين بما يستحق، أما الوالى عيسى بن منصور، فقد عزله المأمون بعد أن عنفه بقوله :

«لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك، حملتم الناس ما لا يطيقون وكنتمتونى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد»^(٢).

أما ابن عبيدس الفهرى قائد الثورة من العرب فقد فر إلى الصعيد، فظفر به وقتل. وأما الثائرون من الأقباط «فنزّلوا على حكم أمير المؤمنين، فحكم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال، فبيعوا وسبى أكثرهم»^(٣).

يقول المقرئى :

«ومن حينئذ ذلت القبط فى جميع أرض مصر، ولم يقدر أحد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان، وغلبهم المسلمون على عامة القرى، فرجعوا عن المحاربة إلى المكايمة واستعمال المكر والحيلة ومكايمة المسلمين وعملوا كتاب الخراج، فكانت لهم وللمسلمين أخبار كثيرة...»^(٤).

هذا موجز لأهم الثورات التى قام بها الأقباط فى القرنين الأول والثانى للهجرة، وقد أخضعت كلها بالقوة. وكان من أهم نتائجها جميعاً أن اعتنق عدد كبير من الأقباط الإسلام بعد كل ثورة - رغبة أو رهبة -.

وكان من الطبيعى - وهذه العوامل تعمل مجتمعة لإدماج الشعبين أحدهما فى الآخر - أن تنتشر اللغة العربية بين الأقباط ليتمكن التفاهم بين الحاكم والمحكوم، وظل انتشار اللغة العربية بطيئاً طوال القرن الأول للهجرة، وقبيل نهاية هذا القرن، أى فى سنة ٨٧ هـ (٧٠٥م). وفى

(١) المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٢) الكندى: الولاة والقضاة، ص ١٩٢.

(٣) الكندى: الولاة والقضاة، ص ١٩٢.

(٤) المقرئى: الخطط، ج ٤، ص ٣٩٦.

ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر من قبل أخيه الوليد بن عبد الملك أمر بالدواوين «فنسخت بالعربية. وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية»^(١).

ففى القرن الأول للهجرة كانت أوراق الدواوين تكتب باللغة اليونانية، وكانت بعض الأوراق تكتب باللغتين العربية واليونانية ويرجع تاريخ أقدم ورقة مكتوب عليها بهاتين اللغتين إلى سنة ٢٢ هـ (٦٤٣م)، ويرجع تاريخ آخر ورقة إلى سنة ١٠١ هـ (٧١٩م)، كما يرجع تاريخ آخر ورقة بردية مكتوب عليها باليونانية فقط إلى سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠م)، أما أقدم ورقة مكتوب عليها بالعربية فقط فتاريخها سنة ٩٠ هـ (٧٠٩م).

وظل هذا التحول من الكتابة باللغة اليونانية فى الدواوين والتحدث بالقبطية بين عامة الناس إلى الكتابة والتحدث باللغة العربية، ظل هذا التحول يتم بالتدرج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، حتى إذا كان القرن الرابع (١٠م) كانت غالبية الشعب المصرى يتكلمون العربية ولا يفهمون القبطية، بدليل أن رجال الكنيسة المصرية اضطروا فى هذا القرن أن يلقوا مواعظهم فى الكنائس باللغة العربية.

وليس معنى هذا أن اللغة القبطية تلاشت تماما، بل لقد ظلت موجودة، بدليل ما يذكره المقريزى من أن الخليفة المأمون كان يتنقل فى ريف مصر ومعه مترجم ينقل عنه وإليه، وما يذكره المقدسى فى كتابه «أحسن التقاسيم» (ألفه حوالى سنة ٣٧٥ هـ) من أن بعض مسيحيى مصر كانوا يتحدثون بالقبطية^(٢).

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن بعض المسلمين تعلموا القبطية فى هذا العهد الأول - عهد الاختلاط - يذكر الكندى أن القاضى خير بن نعيم (ولى القضاء من ١٢٠هـ - ١٢٧هـ) كان «بسمع كلام القبط بلغتهم، ويخاطبهم بها»^(٣) كما يذكر أن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، والى الشرطة على الفسطاط (سنة ١٤٤ هـ)، كان يتكلم القبطية^(٤).

وذكر البلوى فى كتابه «سيرة أحمد بن طولون» أن ابن طولون تغير على أحد رجاله، ففر منه، فأرسل ابن طولون أحد رجال دولته فى طلبه، وأوصاه أن لا يبحث عنه فى داره بالفسطاط ولا فى ضيعته، بل أمره أن يبحث عنه فى «الديارات وعند النصارى.. لأنه حاذق بالقبطية فصيح بها»^(٥).

(١) الكندى: المرجع السابق، ص ٥٨ - ٥٩. وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية مادة «ديوان» ومادة «قبط» أن

الدواوين فى مصر كانت تكتب باليونانية لا بالقبطية.

(٢) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٨.

(٣) الكندى: الولاة والقضاة، ص ٣٤٩.

(٤) نفس المرجع، ص ١١٣.

(٥) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، نشر محمد كرد على، ص ١٣٠ - ١٣١.

ونستطيع الآن أن نلخص خطوات الاختلاط والتحول التي انتهت بتكوين الشعب المصري في العصر الإسلامي الأول في النقاط الآتية :

١ - امتاز القرن الأول للهجرة بكثرة الهجرات العربية المتتابة، وكانت أكبر هذه الهجرات هجرة القبائل القيسية من سنة ١٠٩هـ إلى سنة ١٣٢هـ (أى من عهد هشام بن عبد الملك إلى عهد مروان بن محمد)، وقبل نهاية هذا القرن أيضاً (فى سنة ٨٧هـ) كان تحويل الدواوين المصرية من اليونانية والقبطية إلى العربية.

٢ - ويمتاز القرن الثانى بثورات الأقباط المختلفة -- (من سنة ١٠٥هـ إلى سنة ٢١٦هـ)، وكان من نتائج هذه الثورات دخول كثير من الأقباط فى الإسلام.

٣ - وفى القرن الثالث أسقط العرب من ديوان الجند، ومنعت أعطياتهم، فانتشروا فى القرى المصرية، واشتغلوا بالزراعة، وتزوجوا من المصريات. وفى هذا القرن ثم امتزاج الشعبين.

٤ - ولم يكد يبدأ القرن الرابع حتى كان فى مصر شعب جديد -- هو خليط من الشعبين العربى، والقبطى - يدين معظمه بالدين الإسلامى، ويتكلم السواد الأعظم منه -- مسلمين وأقباطاً - باللغة العربية.

ونستطيع أخيراً أن نفسر اندماج الأقباط فى العرب واعتناقهم الإسلام بالأسباب الآتية :

١ - يقول ابن خلدون: «المغلوب مولع دائماً بتقليد الغالب» وهذه حقيقة ثابتة نشاهدها فى تاريخ الشعوب المختلفة، فليس من البعيد إذن أن يفكر بعض الأقباط فى اعتناق الدين الإسلامى - دين الدولة الحاكمة - وأن يتعلموا اللغة العربية - لغة الحكام -- رغبة فى أن ترتفع مكانتهم، ويسهل اتصالهم برجال الدولة، ويتمتعوا بما يتمتع به المسلمون من مركز مرموق.

ولم يكتف نفر من الأقباط باعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية، بل تغالوا فأدعوا النسب العربى، وبذلوا المال الكثير لإثبات هذا النسب فى وثائق رسمية.

ذكر الكندى أن جماعة من القبط يسمون «أهل الحرس» سعوا لدى قاضى مصر عبد الرحمن ابن عبد الله العمري (١٨٥هـ - ١٩٤هـ) ليسجل لهم سجلاً بإثبات أنسابهم، ودفعوا له ستة آلاف دينار، فرغ العمري الأمر إلى الخليفة الرشيد، وسافر رجلان من «أهل الحرس» إلى بغداد، وأنفقا هناك مالا كثيراً، وادعوا أنهم ينتسبون إلى حوتكه بن أسلم بن الحاف بن قضاة. وعند وصولهم إلى بغداد مات الرشيد، وولى الخلافة ابنه الأمين، فرفعوا إليه قضيتهم، وأيدهم فى دعواهم جماعة من أهل الحوف الشرقى وبادية الشام.

ثم عاد الوفد ومعهم كتاب الأمين إلى العمري بالتسجيل لهم ففعل.

وقد ثار المجتمع العربى فى الفسطاط لهذه القضية وأعلن عن غضبه على القاضى العمرى فى شعر كثير^(١)، ينتقد فيه حكم هذا القاضى ويطعن فى قضاياه، ولم تهدأ ثأرتهم حتى عزل العمرى عن قضاء مصر، ووليه هشام بن أبى بكر البكرى (١٦٤هـ - ١٦٩هـ) من قبل الأمين أيضاً.

وسافر وفد من العرب إلى بغداد للطعن فى حكم العمرى ونسبة «أهل الحرس» للعرب. «فكتب محمد الأمين إلى البكرى بكتاب يذكر فيه أنه لا يمنح أحداً من غير العرب اللحاق بالعرب، ويأمره أن يردهم إلى ما كانوا عليه من أنسابهم»^(٢). فدعا البكرى «أهل الحرس» وطلب منهم سجل قضيتهم الذى أثبت فيه العمرى أنسابهم، ثم أخرج مقراضاً من تحت مصلاه فقطع السجل به، وقال لهم: «العرب لا تحتاج إلى كتاب من قاض. إن كنتم عرباً فليس ينازعهم أحد».

٢ - كان الأقباط يتولون وظائف الدولة الصغرى والكبرى فى المدن وفى القرى، غير أنهم أخذوا يدخلون فى الإسلام ويتعلمون اللغة العربية رويداً رويداً، وخاصة بعد صدور الأمر بتدوين الدواوين فى مصر باللغة العربية، وكان الدافع الأكبر لإقبالهم على اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية رغبتهم فى الاحتفاظ بالوظائف التى يلونها، فقد روى ساويرس بن المقفع أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ - ١٠١هـ) أرسل إلى مصر كتاباً يأمر فيه الأقباط بالتخلى عن وظائفهم ماداموا على دينهم، ومن أراد الاحتفاظ بعمله فليدخل فى دين محمد، ولهذا سلم الأقباط ما بأيديهم من الأعمال والوظائف إلى المسلمين^(٣).

ويؤكد هذه الرواية ما ذكره الكندى من أنه فى خلافة عمر بن عبد العزيز «نزعوا موازيت القبط عن الكور، واستعمل المسلمون عليهم»^(٤). ومن البديهي أن نستنتج أن عدداً كبيراً من أقباط مصر قد دخلوا فى الإسلام وتعلموا اللغة العربية للاحتفاظ بوظائفهم أو للعودة إليها بعد تخليهم عنها. ومع هذا فإنه يبدو أن تنفيذ هذا الأمر لم يكن عاماً، أو أنه لم يلتزم فيما تلا عصر عمر بن عبد العزيز من سنوات، بدليل أن الأقباط ظلوا يشغلون كثيراً من وظائف الدولة، بل لقد ظل بعض الموازيت يختارون من الأقباط، فقد ذكر فى إحدى الأوراق البريدية المحفوظة فى هيدلبرج، والمؤرخة بسنة ١٧١ هـ، اسم مازوت قبلى^(٥).

(١) انظر هذا الشعر وتفاصيل القضية فى (الكندى: الولاة والقضاة، ص ٣٩٧ - ٣٩٩).

(٢) الكندى: المرجع السابق، ص ٤١٣.

(٣) ساويرس بن المقفع: سير الآباء البطارقة، ج ٥، ص ٧١ - ٧٢.

(٤) الكندى: المرجع السابق، ص ٦٩.

(٥) سيدة إسماعيل الكاشف. مصر فى فجر الإسلام، ص ٢٠١.

٣ - ما كان يحدث عقب كل ثورة من دخول كثير من الأقباط فى الإسلام - طوعاً أو كرهاً - وخاصة بعد الثورة الكبرى التى حدثت فى عهد المأمون.

٤ - اعتنق بعض الأقباط الإسلام فراراً من الضرائب التى كانت مفروضة عليهم، وقد يؤيد هذا أن أول انتفاض للقبط فى العهد الإسلامى (سنة ١٠٥ هـ) كان لأن عامل الخراج زاد على كل دينار قيراطاً.

ولم يكد ينتهى القرن الأول للهجرة حتى أحس والى مصر ما لكثرة دخول الأقباط فى الإسلام من أثر فى نقص قيمة الخراج. فلما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ - ١٠١هـ) كتب إليه عامله على مصر أيوب بن شر حبيل يشكو كثرة دخول الناس فى الإسلام، ويذكر له ما لهذا التحول من أثر فى نقص قيمة الخراج، ثم استأذنه فى فرض الجزية على من أسلم، فرد عليه عمر رده المشهور:

«قبح الله رأيك، إن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً، فضع الجزية عمن أسلم، ولعمري لعمر أشقى من أن أجل الناس كلهم فى الإسلام على يديه.

٥ - وهناك سبب أخير قد يكون له من القوة ما يفوق الأسباب السالفة مجتمعة، وذلك أن دخول الأقباط فى الإسلام كان دخولاً طبيعياً، يسير مع التطور المنطقى للحوادث وللتاريخ فى مصر بعد الفتح العربى، وأن الدين الإسلامى ببساطته وبساطة تعاليمه وعقائده قد جذب هؤلاء الأقباط إليه، يقول بهذا رأى شاهد من الديانة المسيحية، هو المؤرخ والمستشرق الإنجليزى المعروف «سيرتوماس أرنولد» فقد قال فى كتابه «الدعوة إلى الإسلام».

«الحق أن كثيراً من مسيحيى مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وتلك السرعة التى اعتنقوا بها النصرانية فى مستهل القرن الرابع الميلادى.. كما أن سرعة انتشار الإسلام فى الأيام الأولى من الاحتلال العربى قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء، أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التى قام بها الفاتحون لجذب الأهلىين إلى الإسلام.

وإن الأساس اللاهوتى لبقاء اليعقوبيين حزباً منفصلاً، والشعائر التى جاهدوا فى سبيل الاحتفاظ بها وقتاً طويلاً، ودفَعوا ثمناً غالياً فى هذا السبيل، قد اجتمعت فى عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضاً وإبهاماً من الناحية الميتافيزيقية، ولا شك أن كثيراً من هؤلاء قد تحولوا وقد أخذت الحيرة منهم كل ما أخذ، واستولى على نفوسهم الضجر والأعياء من ذلك الجدل السقيم الذى احتدم حولهم - إلى عقيدة تتلخص فى وحدانية الله البسيطة الواضحة ورسالة نبيه محمد»^(١).

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام (الترجمة العربية للدكتور حسن إبراهيم وزميليه)، ص ٩٣ - ٩٤.

obeikandi.com

الباب الثالث

الحياة الاقتصادية

فى العاصمة الجديدة الفسطاط

(أ) التجارة .

(ب) الصناعة .

obekandi.com

الحياة الاقتصادية

في الفسطاط

(أ) التجارة :

كان من أهم ما تمتاز به الفسطاط - كما أسلفنا - موقعها على النيل ، فإنه يسر للأهلين سبل الحصول على الماء ، وقد عرفنا كيف خدمت الضواحي العسكرية المدينة فتركتها تنمو وتكبر وتزدهر بعيدة عن حروب ومشاكل الجند ونزاع الطوائف .

وقد ساعدت زيادة عدد السكان المضطربة على أن تكثر بالمدينة الأسواق ، وترد إليها جميع أصناف التجارة من الجنوب والشمال والشرق والغرب ، وذلك بحكم مركزها كعاصمة ، وبحكم موقعها الممتاز على رأس الدلتا ، إذ ينتهي إليها النيل منحدرًا من الصعيد ، ثم يتفرع من شماليها ليتصل بشرق الدلتا وغربها . ثم ينتهي إلى البحر الأبيض المتوسط ، كما كان خليج أمير المؤمنين يصل بين الفسطاط والبحر الأحمر .

لهذا لا نعجب إذا قرأنا وصف المقدسي (توفى ٣٨٧هـ) لمدينة الفسطاط إذ يقول :

(فهو مصر مصر ، وناسخ بغداد ، ومفخر الإسلام ، ومتجر الأنام ؛ وأجمل من مدينة السلام ، خزائن المغرب ، ومطرح المشرق ، عامر المرسم ، ليس فى الأمصار أهل منه ، كثير الأجلة والمشايخ ، عجيب المتاجر والخصائص ، حسن الأسواق والمعاش .. به أطعمة لطيفة ، وإدامات نظيفة ، وحلاوات رخيصة ، كثير الموز والرطب ؛ غزير البقول والحطب ..

وكنت يوماً أمشى على الساحل ، وأتعجب من كثرة المراكب الراسية والسائرة ، فقال لى رجل منهم : من أين أنت؟ قلت : من بيت المقدس ؛ قال : بلد كبيراً ، أعلمك يا سيدى - أعزك الله - أن على هذا الساحل ، وما قد أقلع منه إلى البلدان والقرى ، من المراكب ما لو ذهبت إلى بلدك لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يقال هنا مدينة)^(١) .

وقال السيوطى : نقلًا عن الكندى :

(وكل كورة من كور مصر مدينة قال تعالى : ﴿ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾^(٢) ، وفى كل مدينة منها آثار عجيبة من الأبنية والصخور والرخام والبرابى . وتلك المدن كلها تؤتى فى الماء من السفن تحمل المتاع والآلة إلى الفسطاط ، تحمل السفينة الواحدة ما يحمله خمسمائة بعين)^(٣) .

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ١٨٧٧م ، ص ١٩٧-١٩٨ .

(٢) سورة الشعراء الآية : ٣٦ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٧٢ .

وهذه الأوصاف تصور لنا كيف كانت الفسطاط مجمع التجارة الواردة من الشمال والجنوب عن طريق النيل ، فإن هذا الأسطول الكبير من السفن النيلية كان يصعد جنوباً وينحدر شمالاً ، ثم يعود إلى الفسطاط محملاً بجميع أصناف التجارة والمصنوعات .

كذلك كانت تنتهى إلى الفسطاط التجارة الواردة من بلدان الشرق ، كبلاد العرب والهند والصين . فإنها كانت تلتقى مع التجارة الوافدة من جنوب أفريقيا وأواسطها ، وتصلان إلى مصر عن طريق القلزم وخليج أمير المؤمنين ، أو عن طريق عيذاب - قوص فقط قنا - ثم تحملها الدواب أو السفن حتى تصل إلى الفسطاط .

وكذلك كانت التجارة الوافدة من ممالك أوربا ومن آسيا الصغرى والشام وجزر البحر الأبيض المتوسط كانت تصل إلى موانئ مصر الشمالية ، ثم تنقل بواسطة القوافل أو السفن إلى الفسطاط ، يقول ابن سعيد (توفى سنة ٦٧٣هـ) . (وساحل النيل كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار الأرض والنيل ، ولئن قلت بأنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإنى أقول حقاً^(١)) .

ثم يقول أيضاً : (وأما ما يرد على الفسطاط من البحر الإسكندراني والبحر الحجازى فإنه فوق ما يوصف ، وبها مجمع ذلك لا بالقاهرة ، ومنها تجهز إلى القاهرة وسائر البلاد ..)^(٢) . وكانت المدينة بعد تخطيطها ونموها قد كثرت حاراتها وأزقتها ودروبها وشوارعها ، وسميت هذه جميعاً بأسماء أصحاب الحرف من التجار أو الصناع ، فكان فيها : سوق العداسين ، وسوق الشوايين ، وسوق السماكين ، وسوق الصيادين ، وسوق العلافين ، وسوق القشاشين ، وسوق الزياتين ، وسوق التمر ، وسوق الرقيق .

وكان بها زقاق العسل ، وزقاق السمسم ، وزقاق المسك .

وكان بها رحبة الخروب لأنها مرسومة ببيعه .

وكان بها درب البقالين ، ودرب الديباج .

وقد ذكر ابن دقماق أنه كان بها - فى عصره - ثمانية أسواق ، وخمس عشرة سويقة^(٣) ، ويبدو من وصفه أن أسواق المدينة كانت عامرة أهلة ، فإنه يقول عن (سويقة دار النحاس) . (كانت من أقل أسواق مصر ، ولم يكن بها أكثر من أحد عشر حانوتاً)^(٤) .

(١) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٤١ ؛ وانظر أيضاً ابن دقماق ، الانتصار ، الجزء الرابع ، الفصول الخاصة بالأسواق والرحاب والأزقة والدروب .

(٣) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٣٢ - ٣٤ .

(٤) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٣٣ .

وكان بالفسطاط على عهد ابن دقماق (القرن ٩ هـ = ١٥ م) خمس عشرة فيسارية ، منها :
(قيسارية المحلى .. وليس بها حانوت خال ، وكان يباع بها سائر أنواع الصوف والخيش
والشعر وغيره ، وكانت تنزل إليها في أيام أسواق مصر تجار القاهرة للبيع والشراء بها ..)^(١) .
و (قيسارية الصيانة .. كانت جميعها مسكونة داخلها وظهرها ، وأزقة أبوابها ليس فيها
حانوت خال ، وكان بسوط فرجتها الغربية مساطب يرسم الخياطين ، ولهم مقاعد
بأجناب)^(٢) .

و (قيسارية شبل الدولة .. وكانت معروفة بأقمشة النساء ..)^(٣) .

و (قيسارية ورثة الظاهر .. وكانت معروفة ببيع القماش الشامى ..)^(٤) .

و (قيسارية ابن ميسر الكبرى .. مرسومة لبيع الخام البلدى والمجلوب ..)^(٥) .

و (قيسارية أبى مرة .. قال القضاعى : وفى جمادى الآخرة من سنة ٣٧٨ هـ نقل باعة الجع
والحرير إلى هذه القيسارية)^(٦) .

و (قيسارية ابن ميسر الصغرى .. وكان يباع بها الصناديق وماشبهها)^(٧) .

و (قيسارية الأنماط القديمة . وسكنها أصحاب الأنماط فى سنة ٣٤٧)^(٨) .

والأنماط هى (الستور التى توضع على الهودج فوق الجمال أثناء السفر ، وأغطية
السروج)^(٩) - .

ثم ذكر ابن دقماق أنه كان بالفسطاط على أيامه ستة عشر^(١٠) فندقاً لبيع أصناف الفواكه
والخضر وأنواع التجارة والمصنوعات ، والفندق كلمة من أصل يونانى^(١١) Pandokeion وهو مكان
تخزن البضائع وتعرض فى أسفله ، وينام التجار فى أعلاه ، وكانت الفنادق فى الغالب ملجأ
التجار الأجانب ، وكان من هذه الفنادق بالفسطاط :

(١) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٣٨ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٣٨ .

(٤) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٣٨ .

(٥) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٣٨ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٣٩ .

(٧) نفس المرجع ، ص ٣٨ .

(٨) نفس المرجع ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٩) انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٣٨ ، هامش ٢ .

(١٠) ابن دقماق ، ص ٤٠ - ٤١ .

(١١) انظر : متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ .

فندق دار الخضّر ، وفندق العسل ، وفندق البلاط ، وفندق السدر ، وفندق الدقيق ، وفندق دار التفاح وفندق القصب ، وفندق الحصر ، «ويباع به الحصر الرفيعة والحصر القطبان المجلوبان من القيوم ، ويباع به أيضا الرطب الأمهات والزيتون الأخضر» ، وفندق الكارم ، وفندق الصبائين (ويظاهرة حوانيت الصبائين) .

ويقول المقرئى - نقلاً عن ابن المتوج - إن رجلاً من كبار الصالحين قال : (عددت من مسجد عبد الله إلى جامع ابن طولون ثلاثمائة وتسعين قدر حمص مصلوق بقصبة هذا السوق بالأرض. سوى المقاعد والحوانيت التى بها الحمص. فتأمل - أعزك الله - ما فى هذا الخبر مما يدل على عظمة مصر ، فإن هذا السوق كان خارج مدينة الفسطاط .. ومن المعروف أن الأسواق التى تكون بداخل المدينة أعظم من الأسواق التى هى خارجها ، ومع هذا ففى هذا السوق من صنف واحد من المآكل هذا القدر ، فكم ترى تكون جملة ما فيه من سائر أصناف المآكل. وقد كان إذ ذاك بمصر عشرة أسواق كلها أو أكثرها أجل من هذا السوق)^(١) .

ويصف ابن حوقل الفسطاط بأنها (ذات رحاب فى محالها ، وأسواق عظام ، ومتاجر فخام)^(٢) .

ويروى ناصر خسرو أن البقالين والعطارين وبائعى الخردة كانوا يعطون الشارى الأوانى الزجاجية والورق ليضع فيها ما يبتاع)^(٣) .

(ب) الصناعة :

ذكرنا أن الدروب والرحاب والخوخ والأسواق فى مدينة الفسطاط سميت بأسماء التجار ، وكذلك أطلق على بعضها أسماء أصحاب المهن والحرف والصناعات المختلفة ، فكان بها : سوق السراجين ، وسوق الوراقين ، وسوق الأكافه . وسوق الخبازين . وكان بها زقاق القفاصين ، وزقاق الرزازين ، (وبه صف مخازن مدقات الأرن) . وكان بها درب القواخير ، ودرب النجارين ، ودرب الحدادين ، ودرب الحبالين ، ودرب الحجارين .

وكان بها كذلك خوخة الرفايين (وهى سكن رفايين القماش)^(٤) . يقول ابن سعيد : (وبمدينة الفسطاط مطابخ السطر ، ومطابخ الصابون ، ومسابك الزجاج ، ومسابك الفولاذ ، ومسابك النحاس ، والوراقات ، مما لا يعمل فى القاهرة ولا غيرها من الديار المصرية) .

(١) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ٩٦ .

(٣) ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ١٣٥ ، وزكى محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ١٥٠ و ١٨٠ .

(٤) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٢٠ - ٣٧ .

وهذه الجملة التي ذكرها ابن سعيد تجمع أهل أنواع الصناعات التي كانت قائمة في الفسطاط ، وسنحاول فيما يلي أن نفرص الحديث بعض التفصيل عن كل صناعة من هذه الصناعات :

صناعة السكر : ذكر ابن دقماق أنه كان بالفسطاط ٥٨ مطبخًا للسكر ، هذا عدا المطابخ السلطانية ، وكانت في عهده (القرن الثامن الهجرى) سبعة على صف واحد ، منها مطبخ للدولة ، ومطبخ للخاص السلطاني ، ثم إن السلطان حسن أفرد منها لأولاده ثلاثة ، واستقر مطبخ للدولة ، وباقيها للخاص الشريف ، ولكل واحد منها شاد ومباشرون ، وهى عمارة حسنة^(١) .

ويبدو أن معظم المطابخ الأهلية كان يديرها اليهود ، يقول ابن دقماق عن مطبخ الأمير نور الدين بن فخر الدين عثمان : (ثم سكنه بعض اليهود السكريين)^(٢) .

ويذكر في نفس الصفحة (مطبخ إبراهيم بن المشنق اليهودى ... وهو سكن اليهود)^(٣) . وعند كلامه عن مطبخ آخر كان يملكه الزكى بن السواك يقول : (ثم سكنه اليهود)^(٤) .

وقال عند كلامه عن (مطبخ الربيع العادلى) : (لم يزل بيد اليهود يدولبونه ثم دولبه كريم الدين الكبير)^(٥) .

وفى نفس الصفحة ذكر مطبخًا آخر كان يملكه من يدعى سعيد اليهودى .

ويتضح من كلام ابن دقماق أن غالبية هذه المطابخ للسكر كان يدولبها - أى يديرها ، فى عهده ، وفى غير عهده أمراء الدولة ووزرائها ، بل لقد كان أحد القضاة - وهو القاضى زكى الدين بن الخروبى يدولب أحد هذه المطابخ ، أما المطابخ الأهلية فكان يدولب معظمها اليهود ، وكان واحد منها ملكًا للنصارى الكركيين^(٦) .

وكان بعض هذه المطابخ إذا خربت استخدمت مصانع أخرى لطبخ الصابون ، أو لنفص الكتان ، أو للصباغة ، أو لسبك النحاس ، يقول ابن دقماق عند كلامه عن أحد هذه المطابخ : (ثم جعل صيانة برسم عمل الصابون)^(٧) .

(١) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٤٦ .

(٢) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٤٦ .

(٣) وكان ابن المشنق يملك مطبخًا ثانيًا ، انظر المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٤) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٤٣ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٤٤ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٧) نفس المرجع ، ص ٤٥ .

وعن مطبخ آخر: (وتعطل في سنة ٦٥٣هـ وذهبت عمده وآلاته ، وجعل مقشره للحمص ، ثم جعل مناخا للجمال ، ثم جعل منفذا للكتان)^(١) .

وعن مطبخ آخر : (ثم تعطل وجعل مصبغة للأحمص)^(٢) .
وفى نفس الصفحة يتكلم عن مطبخ خرب ، ويختتم كلامه بقوله : (فخرب وهدم وجعل مكانه (كذا) يضرب فيه ما يسبك في الكور من النحاس) .

وفى أحيان أخرى كانت تستعمل هذه المطابخ بعد خرابها كمخازن لخزن الملح أو الفحم ، يقول ابن دقماق عن أحد هذه المطابخ : (وهو الآن ساحة وجعل منشراً)^(٣) . وعن مطبخ آخر (وخرب وهو يخزن فيه الملح الآن)^(٤) وعن ثالث : (وجعل مخزنا يخزن به الفحم) .

صناعة الزجاج :

صناعة الزجاج قديمة فى مصر ، وكان لها شأن كبير فى العصر الرومانى ، وظلت مزدهرة فى العصر الإسلامى ، ولكن مركز إنتاجها الهام أصبح فى العاصمة الجديدة الفسطاط، وقد ذكرنا ناصر خسرو أن التجار بهذه المدينة كانوا يقدمون للمشتريين مبيعاتهم فى أوان من الزجاج كانت تقوم مقام الورق فى هذه الأيام ، وقد كشف فى حفائر الفسطاط عن قطع كثيرة من الأقراص الزجاجية التى كانت تتخذ عيارات لوزن النقود فى العصر الإسلامى ، وقد نقش على كثير منها أسماء ولاة مصر وخلفائها ، وقد أشار ابن سعيد إلى وجود عدد من مسابك الزجاج فى مدينة الفسطاط .

صناعة البللور الصخرى :

كذلك ازدهرت بالفسطاط صناعة الأواني الفاخرة من البللور الصخرى ، وقد أعجب ناصر خسرو بما رآه من أنواع هذه الصناعة فى سوق القناديل بالفسطاط ، فقال : (إنه كان غاية فى الجمال والإبداع ، وإنه كان مشغولاً بأسلوب فنى على يد صناع لهم ذوق رقيق) ، وذكر فى هذه المناسبة أن البللور كان يجلب من بلاد الغرب حتى قبل رحلته إلى مصر بزمان وجيز حين جىء ببعضه من إقليم البحر الأحمر ، وكان هذا النوع الجديد أجمل من المغربى وأكثر منه شفافية)^(٥) .

(١) نفس المرجع ، ص ٤٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٥) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٨٨ ؛ وناصر خسرو : سفرنامه ، ص ١٤٩ .

وقد أدى عثور المصريين على البللور فى بلادهم إلى انخفاض ثمنه وكثرة إنتاجه ، ولهذا كانت قصور الفاطميين وقصور وزرائهم وكبار رجال دولتهم تضم العدد الكثير من الأوانى البديعة المصنوعة من هذا الصنف .

الصناعات الخشبية :

كذلك كان لصناعة الخشب ونقشه شأن كبير فى مدينة الفسطاط ، ويدل على نموها والعناية بها النقوش الجميلة على أبواب المساجد والكنائس والدور ، وما وجد على الإطارات الخشبية التى عثر عليها فى هذه المباني من نقوش وكتابات .

ولم يكتف المصريون بما كان لديهم من أصناف الأخشاب المستخرجة من الأشجار المحلية كأشجار السدر والجميز والسنت والسر والأتل .. إلخ بل استوردت الأخشاب المتينة من الخارج ، كخشب الأرز من آسيا الصغرى وسوريا ولبنان ، وأخشاب الزينة من المشرق كخشب التاك والساج من الهند ، والأبنوس من السودان ، كما استوردوا أصنافاً أخرى من بلدان جنوب أوروبا وخاصة الجمهوريات الإيطالية كجنوة والبندقية^(١) .

وقد كانت فى الفسطاط أسواق عامرة بالأخشاب منذ العصر الطولونى ، وكان له تجار كثيرون ، كما كانت ترد معظم الأخشاب إلى ديوان الحراج بالفسطاط فيبييعها للتجار حيث تستغل فى الصناعات الخشبية المختلفة أو تستخدم لبناء سفن الأسطول^(٢) .

وكان للقطب مهارة فائقة منذ القدم فى التجارة وصناعة الخشب ونقشه وزخرفته ، وظلت لهم الزيادة فى هذا الميدان بعد الفتح العربى ، ثم تعلم على أيديهم من أسلم من المصريين .

صناعة العاج :

وكان لصناعة العاج شأن فى العصر الإسلامى ، وهى صناعة قديمة ، وقد عثر فى حفائر الفسطاط على قطع شطرنج مصنوعة من العاج وعليها زخارف ، كذلك استعمل العاج فى نقش الخشب وحشوه وتجميله . وقد عثر كذلك فى حفائر الفسطاط على قطع كثيرة ، منها حشوة من العاج عليها رسم سيدة فى هودج وجندى فى يده رمح وقوس وصائد بالباز على ظهر جواده ، وهذه القطعة ترجع للعصر الفاطمى ، وهى محفوظة الآن فى دار الآثار العربية بالقاهرة ، وفى بعض الحشرات الأخرى رسوم طيور وحيوان كالأرنب والطاووس .. إلخ^(٣) .

(١) انظر ابن ممتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٦٥ .

(٢) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٣٣ - ١٣٥ .

(٣) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٢٢٥ .

صناعة الحلبي :

وقامت كذلك بالفسطاط صناعة الحلبي وأدوات الزينة ، وقد عثر في حفائر الفسطاط على إسورة وخواتم وأقراط من الذهب أو الفضة ، وعليها زخارف نباتية دقيقة ، ويرجح أنها ترجع إلى العصر الفاطمي^(١) .

صناعة الخزف :

(أ) الخزف ذو البريق المعدني : ليس هناك أى دليل على وجود أى خزف ذى بريق معدني فى الفسطاط قبل القرن الثالث الهجرى - أى قبل العصر الطولونى - وإنما المرجح أن هذا النوع من الخزف نشأ فى العراق ، ثم نقلت صناعته إلى مصر فى عهد أحمد بن طولون ، فلما جاء العصر الفاطمى كانت هذه الصناعة قد نمت فى مصر وازدهرت . وقد رأى ناصر خسرو نماذج من هذا الخزف فى الفسطاط ، وأعجب بها أيما إعجاب . وقد عمل الفخاريون بالفسطاط على تقليد هذا النوع من الخزف ذى البريق المعدني كما يظهر ذلك واضحاً فى قطع منه وجدت فى أطلال الفسطاط .

وقد أشار ناصر خسرو إلى صناعة الخزف فى الفسطاط فى العصر الفاطمى فقال :

(إن المصريين كانوا يصنعون أنواع الخزف المختلفة ، وأن الخزف المصرى كان رقيقاً وشفافاً ، حتى لقد كان ميسراً أن ترى من باطن الإناء الخزفى اليد الموضوعة خلفه ، وكانت تصنع بمصر الفناجين والقدور والبرانى والصحون والمواعين الأخرى ، وتزين بألوان تشبه لون القماش المسمى بوقلمون ، وهى ألوان تختلف باختلاف أوضاع الآنية)^(٢) .

وقد اندثرت هذه الصناعة من الفسطاط بعد حريق شاور للمدينة ، أى فى نهاية الدول الفاطمية .

وكان رؤساء هذه الصناعة يثبتون أسماءهم على قطع الخزف التى تخرج من مصانعهم أو فواخيرهم ، وخاصة فى العصر الفاطمى ، وأشهر هذه الأسماء مسلم ، وسعد ، وطبيب على ، وإبراهيم المصرى .. إلخ .

(وكانت الرسوم الآدمية ورسوم الحيوان العنصر الأساسى فى زخارف الخزف الفاطمى ، بينما كانت الفروع النباتية والأوراق عنصر ثانوياً يصحب الموضوع الرئيس الذى يسوده بكبر حجمه وظهور أهميته)^(٣) .

(١) نفس المرجع ، ص ٢٤٨ .

(٢) كنوز الفاطميين : ص ١٥٢ .

(٣) كنوز الفاطميين : ص ١٥٥ - ١٦٠ .

ويقسم الدكتور زكى محمد حسن صناعة الخزف فى الفسطاط فى العصر الفاطمى إلى مدرستين : تنتسب إحداهما إلى رجل يدعى سعد ، والأخرى إلى رجل يدعى مسلم ، ثم يقارن بين مميزات ما صنع فى مصانع كل من المدرستين فيقول : (والظاهر أن مدرسة سعد فى الزخرفة بالبريق المعدنى لم تقتصر على الخزف فقط، بل تجاوزته إلى الزجاج .. أما الرسوم الآدمية فى منتجات سعد وأتباعه ففيها أنوثة ورقة تذكر برسوم الأشخاص فى صور رضا عباسى^(١) .

الخزف الصينى :

(ب) وقد عثر فى حفائر الفسطاط على قطع كثيرة من الخزف الصينى أو من خزف حاول الصناع المصريون فيه تقليد خزف الصين ، ومن المرجح أن استيراد الخزف الصينى إلى مصر بدأ فى العهد الطولونى ، فقد عرف ابن طولون هذا النوع من الخزف فى سامرا ، ومن الواضح أن وجود الصينى فى الفسطاط يدل على وجود علاقات تجارية بين مصر والصين فى ذلك الحين ، يقول الدكتور زكى محمد حسن : (وليس غريب أن يسعى الخزفيون المصريون فى تقليد الخزف الصينى إرضاء للذوق السائد فى ذلك العصر ، فقد كان الخزف الصينى مشهوراً فى الشرق الأدنى)^(٢) .

ولم يعمل المصريون على تقليد الخزف الصينى تقليداً أعمى ، وإنما نقلوا عن نقوشه واقتبسوا من رسومه ، وأنتجوا خزفاً لا يقل جودة ولا جمالاً عن الخزف الصينى .

صناعة الفخار غير المدهون :

وقامت فى الفسطاط إلى جانب صناعة أصناف الخزف ذى البريق المعدنى صناعة الفخار غير المدهون ، يصنع منه الأواني الشعبية ، وخاصة القلل التى لم تكن تغطى بدهان إلى فى النار، وأجمل ما فى القلل شبابيكها التى كانت ميداناً طيباً للزخارف الهندسية والرسوم الهندسية والحيوانية . (ولا شك أن شبابيك القلل التى عثر عليها فى أطلال الفسطاط قد صنعت فى الفسطاط نفسها ، لأن بعض القطع التى عثر عليها كانت مما تلف أثناء صناعتها أو تسويتها ، ولم يكن ثمة داع لجلبها من مكان بعيد وهى فى هذه الحالة من التلف)^(٣) .

(١) كنوز الفاطميين : ص ١٦٢ .

(٢) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٦٦ .

(٣) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٧٤ .

صناعة قوارير النفط :

كذلك كانت بالفسطاط مصانع لصنع قوارير النفط ، وهى تشبه أن تكون قنابل يدوية صغيرة ، وقد صنعت من مادة سميكة وعلى أشكال مختلفة ، وهى ، محببة الظاهر ، وفى بعض جوانبها نتوء ليسهل على الرامى مسكها ، وتذكر المراجع التاريخية أن عددًا كبيرًا من هذه القوارير قد استخدم فى حرق الفسطاط فى عهد وزارة شاور سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) . قال المقرئزى : (وبعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار ، فرق ذلك فيها . فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء ، فصار منظرًا مهولاً ، فاستمرت النار تأتى على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يومًا) .

(ومن أنواع الفخار التى عرفت فى العصر الفاطمى الخزف ذو الزخارف المحفورة أو المحزوزة فى طينة الإناء تحت طلاء ذى لون واحد ، وقد وجدت فى أطلال الفسطاط قطع من هذا النوع لم تصلح صناعتها أو تسويتها فى القرن مما يمكن أن يستنبط منه أن مدينة الفسطاط كانت مركز صناعة هذا الخزف ..)^(١) .

صناعة الورق :

وكانت بالفسطاط مصانع أو مطابخ لصنع الورق ، يقول المقرئزى عند كلامه عن إحدى خطط الفسطاط : (وهذا الموضع اليوم وراقات يعمل فيها الورق)^(٢) .
ويقول فى موضع آخر : (والمطابخ التى يصنع فيها الورق المنصورى مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة)^(٣) .

(١) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٢) المقرئزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٧٧ .

(٣) المقرئزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .

الباب الرابع

الحياة العلمية فى الفسطاط

نشأتها وتطورها

- المدرسة الدينية.

- المدرسة التاريخية.

- المدرسة الأدبية.

- المدرسة العلمية.

obeikandi.com

الحياة العلمية

فى الفسطاط

المدرسة الدينية:

كانت مصر مهذاً لحضارة علمية مزدهرة فى العصرين البطلمى والرومانى، غير أن هذه الحضارة كانت قد انتابتها عوامل الانحلال والضعف قبيل الفتح العربى، فلما استقر العرب فى مصر - وخاصة فى الفسطاط فى أول الأمر - بدأوا يمهدون لتكوين حضارة علمية جديدة، وساعد على تكوين هذه الحضارة الجديدة انتشار العرب بين المصريين وزواجهم منهم، فلم يكذب ينتهى القرن الثالث الهجرى حتى كان الإسلام قد انتشر فى ربوع مصر، وحتى كانت اللغة العربية هى لغة جميع المصريين.

وكان واجب العرب الأول فى مصر وغيرها من الأمصار هو نشر الدين الإسلامى، وتعائمه، ولذلك نجد أن كبار الصحابة الذين استقروا فى مصرهم المعلمون الأول، كما أن مسجد عمرو فى الفسطاط هو المدرسة الأولى التى درس فيها هذا العلم. وقد نشأت إلى جانب الفسطاط عواصم أخرى هى: العسكر، والقطن، والقاهرة، غير أن هذه العواصم كانت دائماً ضواحي ملكية كما ذكرنا - وظلت الفسطاط دائماً مركز النشاط العلمى وملجأ العلماء والفقهاء.

وبديهى أن تكون العلوم الأولى التى درست بالفسطاط تتصل بالقرآن وتفسيره، وبالحدیث وروايته، وكان إمام هذه المدرسة المصرية الصحابى الشهير عبد الله بن عمرو بن العاص، وقد كان رجلاً واسع الثقافة، روى أنه كان يقرأ التوراة، وذكر ابن سعد فى طبقاته أنه كان يقرأ بالسرانية.

وعنى عبد الله بن عمرو أكثر ما عنى برواية الحدیث، قال مجاهد:

«رأيت عند عبد الله بن عمرو صحيفة، فسألته عنها، فقال: هذه الصادقة، فيها ما سمعت

من رسول الله - ﷺ - وليس بينى وبينه فيها أحد»^(١).

وقد روى عنه الحدیث كثيرون، وكان كثير الترحال، وخاصة إلى بلاد الحجاز والشام، غير أنه استقر بمصر، وسكن بداره - دار عمرو الصغرى - بالفسطاط، وبها مات ودفن - تبعاً لأحد الأقوال -.

(١) طبقات ابن سعد، ص ٧، ١٨٩؛ وانظر أيضاً أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٢٢٨.

ويعتبر عبد الله بن عمرو - بحق - المؤسس الأول للمدرسة العربية في مصر، عنه تلقى كثير من المصريين ودونوا ما كان يرويه من أحاديث.

فالمدرسة الأولى في مصر كان مكانها جامع عمرو بالفسطاط، وأساتذتها كبار الصحابة، وأستاذها الأول عبد الله بن عمرو، وعلومها دينية تتصل بالقرآن وتفسيره، والحديث وروايته. وقد كثرت الرحلة من مصر وإليها في طلب الحديث وتصحيحه، ونبغ من المصريين كثيرون هم تلامذة هذه المدرسة الأولى، ومن أشهرهم في القرن الأول سليم بن عتر التجيبى «وهو أول من قص بمصر سنة ٣٩ هـ، وولاه معاوية القضاء سنة ٤٠ هـ، فأقام قاضياً عشرين سنة، وهو أول من أسجل بمصر سجلاً في المواريث، مات بدمياط سنة ٧٥ هـ»^(١).

ومن أبرز الشخصيات العلمية في مصر في القرن الثاني يزيد بن أبي حبيب الأزدي، وكان رجلاً واسع المعرفة في الناحيتين التاريخية والفقهية، يروى عنه كثير من أخبار الفتح العربي لمصر، وهو أول من عنى بالتشريع في مصر بعد أن كانت عناية سابقه بالقصص والتاريخ، ذكر السيوطي في حسن المحاضرة «أنه أول من أظهر العلم بمصر، والمسائل في الحلال والحرام، وقبل ذلك كانوا يتحدثون في الترغيب والملاحم والفتن»^(٢).

وقد نبغ من تلاميذ يزيد اثنان من أعلام المدرسة المصرية الأولى، وهما: عبد الله بن لهيعة، والليث بن سعد.

أما ابن لهيعة فمن أصل حضرمي، وكان - كما يقول الذهبي - «من الكتابيين للحديث والجماعين للعلم والرحالين فيه»^(٣).

وكان ابن لهيعة «يكنى أبا خريطة» وذلك أنه كانت له خريطة معلقة في عنقه، فكان يدور بمصر. فكلما قدم قوم يدور عليهم، فكان إذا رأى شيخاً سأله: من لقيت؟ وعن كتبت»^(٤). وقد ولى ابن لهيعة قضاء مصر من قبل أبي جعفر المنصور نحو عشر سنين (١٥٥هـ - ١٦٥هـ). وقد نقل عنه الكندي كثيراً من أخبار الفتح العربي لمصر، وقد توفي سنة ١٧٤ هـ ودفن بالقرافة من جبانة مصر. وقد وصفه صاحب النجوم الزاهرة بأنه كان عالم الديار المصرية وقاضيها ومحدثها.

أما الليث بن سعد فمصرى المولد، وإن كانت أسرته من أصبهان بفارس ولد في قرية قشندة سنة ٩٣ هـ (أى في السنة التي ولد فيها الإمام مالك) وتلقى العلم في مصر، وتتلّمذ ليزيد بن أبي حبيب، ثم ارتحل يستكمل علمه، فتلقى عن شيوخ الحجاز والعراق.

(١) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٢٩.

(٢) نفس المرجع، ص ١٣١.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٧٧.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٨٨.

وكان الليث غنيًا ذا أملاك كثيرة، وكان كريمًا كثير الصلوات للعلماء، احترقت دار ابن لهيعة فوصله بألف دينار. ولما زار المدينة أهدى إليه مالك أشياء من طرفها، فبعث إليه ألف دينار، وكتب إليه مالك مرة يذكر أن عليه دينًا، فأرسل إليه خمسمائة دينار، وقد وصله مرات كثيرة غير هذه^(١).

ومع هذا كان الليث غزير العلم، واسع المعرفة، محدثًا ثقة، يجيد النحو والعربية، قال عنه أحمد بن حنبل: ما في هؤلاء المصريين أثبت من الليث.. ما أصح حديثه..
قال عنه الشافعي:

«الليث أفتقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به».

وقد كانت تربط بين الإمامين الليث ومالك صلوات من الود وثيقة، وقد تبودلت الرسائل بين الرجلين لمناقشة كثير من المسائل الفقهية، وقد حفظت لنا الكتب التي تؤرخ للفقه رسالتين من هذه الرسائل مرسله من مالك إلى الليث يأخذ عليه فيها في أسلوب رقيق فتواه بأشياء تخالف ما يسير عليه أهل المدينة، مع أن المسلمين - كما يقول مالك - تبع لأهلها، فهي دار الهجرة، وفيها نزل معظم القرآن الكريم، وفي ختام الرسالة يرجو مالك أخاه الليث أن يراجع نفسه فيما كتب، وفيما أفتى، وأن يلتزم طريق أهل المدينة ويتبع منهجهم.

والرسالة الثانية تتضمن رد الليث على مالك، وفيها يدافع دفاعًا قويًا ولبقًا عن رأيه ومذهبه، والرسالتان في الواقع نموذج طيب لأدب الحواريين العلماء.

وكان الليث بعلمه وكرمه ذا شخصية فذة في المجتمع المصري، فكان الأمراء يجلبونه ويرجعون إلى رأيه دائمًا، وقد رشحه الخليفة أبو جعفر المنصور للقضاء فاعتذر، فطلب منه أن يدلّه على من يصلح لتولى القضاء ففعل، قال ابن تغرى بردى.

«كان الليث كبير الديار المصرية ورئيسها، وأمير من بها في عصر، بحيث أن القاضي والنائب من تحت إمرته ومشورته، وكان الشافعي يأسف على فوات لقيه»^(٢).

ويدل على نفوذ الليث ما كتبه بعض الشائنين إلى الخليفة المنصور في حقه:
أمير المؤمنين تلاف مصرًا فإن أميرها ليث بن سعد

وقال أشهب بن عبد العزيز: «كان لليث أربعة مجالس في كل يوم: مجلس لحوائج السلطان، ومجلس لأصحاب الحديث، ومجلس لأصحاب المسائل (أى الفتوى في الحلال أو الحرام)، ومجلس لحوائج الناس»^(٣).

(١) انظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٢: ص ٨٨.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٨٢.

(٣) انظر أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٩٠.

وكان الليث كذلك أحد الأعلام الثقاة الذين روى عنهم ابن عبد الحكم فى كتابه «فتوح مصر»، والكندى فى كتابه «الولاة والقضاة»، مات سنة ١٧٥هـ، فحزن المصريون جميعاً لموته، قال واحد ممن شهدوا جنازته: «رأيت الناس كلهم عليهم الحزن، يعزى بعضهم بعضاً، فقلت لأبى: يا أبت، كأن كل واحد من هؤلاء صاحب الجنازة، فقال لى: يا بنى، كان عالماً كريماً حسن العقل، كثير الأفضال، يا بنى: لا ترى مثله أبداً...».

وفى القرن الثانى للهجرة بدأت حركة تدوين الكتب وتأليفها فى مختلف ولايات الدولة الإسلامية بما فيها مصر، وكان على رأس القائمين بهذه الحركة فى مصر العالمان الكبيران عبد الله بن لهيعة، والليث بن سعد، يؤكد هذه الحقيقة الذهبى فى تاريخ الإسلام قال:

«وفى هذا العصر (أى القرن الثانى للهجرة) شرع علماء الإسلام فى تدوين الحديث والفقهِ والتفسير، وصنف ابن جريج التصانيف بمكة، وصنف سعيد بن أبى عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة، وصنف أبو حنيفة الفقه والرأى بالكوفة، وصنف الأوزاعى بالشام، وصنف مالك الموطأ بالمدينة، وصنف ابن إسحاق المغازى، وصنف معمر باليمن، وصنف سفيان الثورى كتاب الجامع^(١)، ثم بعد يسير صنف ابن هشام كتبه، وصنف الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة، ثم ابن المبارك والقاضى أبو يوسف يعقوب، وابن وهب، وكثر تيوب العلم وتدوينه، ورتبت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس، وقبل هذا العصر كان سائر العلماء يتكلمون عن حفظهم ويروون العلم عن صحف صحيحة غير مرتبة، فسهل ولله الحمد تناول العلم، فأخذ الحفظ يتناقص، قلله الأمر كله».

وفى ذلك الوقت ظهر مذهباً أبى حنيفة ومالك، فانحاز إلى كل مذهب فريق من المسلمين، وكذلك كان الحال فى مصر، فقد انقسم المصريون قسمين: قسم تبع مذهب أبى حنيفة، وقسم تبع مذهب مالك، وحدث بين أتباع المذهبين نزاع ونقاش وخصام، حتى وقد على مصر الشافعى، فرحب به المصريون، واستضافته أسرة من أكرم الأسر وأغناها وأعلمها فى القسطنطينية، وهى أسرة بنى عبد الحكم، وقدمته هذه الأسرة للمجتمع المصرى، فأحبه المصريون لعرويته وقرشيته وعلمه وفصاحته.

وكون الشافعى لنفسه حلقة فى المسجد الجامع - مسجد عمرو بن العاص - وأقام فى مصر نحو خمس سنين كثر فيها تابعوه وتلاميذه، وأهمهم البويطى، والمزنى، والربيع المرادى، وزاد فيها نشاطه العلمى، فألف كتاب «الأم»، وشرح مذهبه من بعده تلميذاه: المزنى والبويطى فى كتابين هما: مختصر المزنى، ومختصر البويطى. ويصف ابن حجر نشاط الشافعى العلمى أثناء مقامه فى القسطنطينية يقول:

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٩٢.

«وكان (أى الشافعى) يجلس فى حلقتة إذا صلى الصبح، فيجيئه أهل القرآن فيسألونه، فإذا طلعت الشمس قاموا، وجاء أهل الحديث فيسألونه عن معانيه وتفسيره، فإذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة، فإذا ارتفع النهار تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو حتى يقرب انتصاف النهار، ثم ينصرف إلى منزله».

وبانتشار المذهب الشافعى، أصبح المسلمون فى مصر شيعاً ثلاث، وكثر النزاع والخصام بين أتباع كل مذهب واتباع المذهب الآخر.

هذه هى الحركة العلمية الأولى فى القسطنطينية بالصيغة الدينية، وعنيت بالقصص والأخبار والتاريخ، ولم تكن مقصورة على المسلمين من العرب الذين نزحوا إلى مصر، بل شارك فيها كثيرون من المصريين الأصليين الذين أسلموا. ومنهم عثمان بن سعيد المصرى المعروف بورش - مولى آل الزبير بن العوام - وكان من أصل قبضى، ونبغ فى قراءة القرآن، واشتهر بإحدى القراءات المنسوبة إليه، وانتهت إليه رئاسة الإقراء بالديار المصرية فى زمانه «وكان ماهراً فى العربية، مات عصر سنة ١٩٧هـ»^(١). كذلك جاء من بعده ذو النون المصرى الإخميمى النوبى الأصل «وهو أحد رؤوس الصوفية ومؤسسها فى الديار المصرية، توفى سنة ٢٤٥ هـ وقد قارب التسعين»^(٢).

المدرسة التاريخية:

وقد تشعبت من هذه المدرسة الدينية الأولى مدرسة أخرى تعنى بالتاريخ وبالتاريخ المصرى خاصة، وكانت باكورة ما ألقت هذه المدرسة كتاب «فتوح مصر والمغرب والأندلس» لعبد الرحمن ابن عبد الحكم الذى يعتبر بحق أول مؤرخى مصر الإسلامية، ويليه كتاب «در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة» للربيع - تلميذ الشافعى -.

وكانت هذه المدرسة متأثرة فى أول أمرها بالمدرسة الدينية، فكانت تروى التاريخ روايتها للحديث، ثم أخذت تتحرر شيئاً فشيئاً من هذا الأثر، ونبغ من المؤرخين المصريين فى القرنين الثالث والرابع عدد كبير من بينهم:

١ - عمار بن وسيمة المصرى المتوفى سنة ٢٨٩هـ، وأحد تلاميذ الليث بن سعد، ذكره السيوطى فى «حسن المحاضرة»، وقال إنه ألف تاريخاً على السنين، وقد ضاع هذا التاريخ:

٢ - أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المصرى الحافظ المؤرخ، ولد سنة ٢٨١هـ وتوفى سنة ٣٤٧، وقال عنه مؤرخوه إنه كان إماماً فى علم التاريخ، وله كلام فى الجرح

(١) السيوطى: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٢٤.

(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٩٢.

والتعديل يدل على تبصره بالرجال، ألف كتابين في تاريخ مصر، الأول - وهو الأكبر - يختص بأهل مصر، والثاني يختص بذكر الغرباء الوافدين على مصر، وله كتاب ثالث في تاريخ الصعيد اسمه «العقيد في تاريخ الصعيد» انفراداً بذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون».

وكتب ابن يونس جميعاً مفقودة، وإن كان المؤرخون المتأخرون ينقلون عنه كثيراً، وقد رثاه بعد موته الشاعر المصري أبو عيسى عبد الرحمن بن إسماعيل الخشاب النحوي بأبيات طريفة منها البيت المشهور:

مازلن تلهج بالتاريخ تكتبه حتى رأيتك في التاريخ مكتوباً.

وقال ابن كثير: «وله ولد يقال له أبو الحسن علي، وكان منجماً له زيغ مفيد يرجع إليه أصحاب هذا الفن كما يرجع أصحاب الحديث إلى أقوال أبيه وما يؤرخه وينقله ويحكىه، وإن كان ابن خلكان يقول إن عبد الرحمن نفسه هو المنجم المشهور صاحب الزيغ، وهذا وهم من ابن خلكان، والصحيح ما ذكره ابن كثير، وللابن ترجمات مختلفة خلاصتها أن الابن - أبا الحسن علي - كان من خواص المقربين للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، وله كتاب «الزيغ الكبير الحاكمي»، أتمه قبل وفاته سنة ٣٩٩هـ، وأنه كان مختصاً بعلم النجوم متصرفاً في سائر العلوم، بارعاً في الشعر، وله شعر كثير.

وقد نبغ من أسرة ابن يونس عدد كبير من العلماء، منهم عبد الرحمن المؤرخ؛ ومنهم ابنه العالم الفلكي أبو الحسن علي، وكان جد عبد الرحمن من فقهاء مصر المعدودين، فهو أبو موسى يونس بن عبد الأعلى الفقيه المصري صاحب الشافعي.

٣ - ابن الداية (أبو جعفر أحمد بن يوسف):

كان أحد كتاب بني طولون المقربين إليهم، ومن الممكن أن نقول إنه كان المؤرخ الرسمي للأسرة، فقد ألف كتاباً في «سيرة أحمد بن طولون» وكتاباً آخر في سيرة ابنه «أبي الجيش خماروية»، ويقول ابن زولاق: «وكان أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب قد عمل سيرة أحمد بن طولون أمير مصر، وسيرة ابنه أبي الجيش، وأنشدا في الناس، وقرأهما عليه، وحدثت بهما عنه، مع غيرهما من مصنفاة، ثم عملت أنا ما فاته من سيرتهما»^(١).

وواضح من كلام ابن زولاق أن ابن الداية كانت له كتب أخرى في التاريخ، وقد أشارت المراجع الأخرى التي ترجمت له إلى عناوين هذه الكتب وهي: كتاب «أخبار غلمان بني طولون»؛ وكتاب «حسن العقبي»، وكتاب «أخبار الأطباء» وكتاب «المكافأة»، وهذه الكتب للأسف قد فقدت ولم يصلنا منها غير كتب ثلاثة هي: «سيرة أحمد بن طولون» و«المكافأة» و«حسن العقبي».

(١) المغرب لابن سعيد، ص ٤.

٤ - البلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد المديني):

وهو مؤرخ مصرى مجهول لم يعن أحد من قبل بالكتابة عنه. لا نعرف تاريخ مولده أو وفاته، ولكننا نعرف أنه ينتمى إلى قبيلة بلى العربية، وأنه عاش فى القرن الرابع الهجرى (١٠م). كان ابن النديم أول من ترجم له فى كتابه «الفهرست»، فذكر أنه كان عالماً وفقياً وواعظاً، وأنه ألف كتباً كثيرة منها: كتاب الأبواب، وكتاب المعرفة، وكتاب الدين وفرائضه. وقد فقدت هذه الكتب جميعاً، ولم يبق من مؤلفاته إلا كتابه «سيرة أحمد بن طولون» وحوالى سنة ١٩٣٥م كشف الأستاذ محمد كرد على عن نسخة خطية من هذا الكتاب فى المكتبة الظاهرة بدمشق، ونشرها نشرة علمية دقيقة، مع مقدمة وتعليقات مفيدة.

ويعتبر هذا الكتاب من أهم المراجع لدراسة تاريخ أحمد بن طولون بل ودراسة تاريخ مصر والشرق الأدنى الإسلامى فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (٩م)، فهو أكثر تفصيلاً من المراجع الأخرى التى وصلتنا عن هذه الحقبة من الزمن.

٥ - الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف):

من مؤلفى القرن الرابع الهجرى، فقد ولد سنة ٢٨٣هـ وتوفى سنة ٣٥٠هـ، ويمثل مرحلة النضوج فى المدرسة التاريخية المصرية فى العصر الإسلامى الأول، فمن كتبه يتضح أن التاريخ قد استقل بنفسه كعلم، فبعد عن علم الحديث، وتخفف من الإسناد إلى حد كبير، وقعدت له قواعده، واتخذت له مناهجه، واتجه المؤرخون المصريون فى تأليفهم إلى فنون خاصة بهم انفردوا بها عن بقية المدارس التاريخية فى أجزاء العالم الإسلامى الأخرى، وخاصة فن التأليف فى الخطط الذى بدأه ابن عبد الحكم، وسار على نهجه فيه الكندى.

وللكندى مؤلفات كثيرة منها كتاب «الخطط». وقد أشار المقرئى إلى أنه اعتمد عليه كثيراً فى كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، وكتاب «مسجد أهل الولاية»، وقد أرخ فيه للقواد والعلية من الموالى غير العرب الذين اشتركوا فى فتح مصر أو وفدوا عليها. وقد ضاعت هذه الكتب جميعاً، ولم يصلنا من كتب الكندى إلا كتابه «الولاية والقضاة»، وهو أهم كتبه جميعاً، وفيه يؤرخ لولاية مصر منذ عمرو بن العاص إلى أنوجور بن الإخشيد، ولقضاة مصر فى نفس الحقبة.

والكتاب فى الحقيقة مصدر هام جداً لكل من يريد التأريخ لمصر فى العصر الإسلامى الأول، وقد اعتمد عليه ونقل عنه كل المؤرخين اللاحقين.

٦ - الحسن بن زولاق:

من مؤرخى القرن الرابع كذلك، فقد ولد سنة ٣٠٦هـ وتوفى سنة ٣٨٧هـ، وهو من تلاميذ ابن الداية وأبى عمر الكندى، قرأ عليهما وأخذ عنهما، وتأثر بهما كثيراً، وكان تأثره بالكندى أكبر وأوضح.

كان ابن زولاق مؤرخاً مخضراً، فقد عاصر الدولة الإخشيدية، وأدرك أوائل الدولة الفاطمية، وقد تأثر بأستاذه ابن الداية فى كتابه «السير» فألف عدداً كبيراً من الكتب فى هذا الفن، منها: سيرة الإخشيد، وسيرة كافور، وسيرة جوهر، وسيرة المعز، وسيرة العزيز، سيرة الماذرائيين وزراء الإخشيديين، كما ألف سيرة خاصة لصديقه وزميله فى الدراسة سيبويه المصرى - وهو عالم نحوى عاش فى الفسطاط فى أواخر العصر الإخشيدى وأصابته فى أواخر أيامه لوثة من الجنون.

أما تأثر ابن زولاق بأستاذه الكندى فيتضح فى تأليفه فى نفس الموضوعات التى طرقها من قبله الكندى، فقد ألف فى فضائل مصر وخططها، كما ألف ذيلًا لكتاب ولاية مصر وقضائها الكندى.

ولم يصلنا من كتب ابن زولاق إلا «سيرة سيبويه المصرى»؛ وذيله على كتاب القضاة (وقد نشره جست ملحقا بكتاب القضاة للكندى)، أما كتبه الأخرى فقد ضاعت، وإن كان المؤرخون اللاحقون قد نقلوا عنها كثيراً، وخاصة المقرئى، وفى كتابيه «اتعاظ الحنفا» و«الخطط» مقتبسات كثيرة عن «سيرة المعز لدين الله» و«سيرة الماذرائيين».

هؤلاء هم أقطاب المدرسة التاريخية فى فجر مصر الإسلامية، وقد أشاعوا نشاطاً كبيراً فى حركة التأليف التاريخى، وقد شارك فى هذا النشاط وتأثره به وأثر فيه عدد آخر من كبار المؤرخين المسلمين الذين وفدوا على مصر فى هذه الفترة، فقد وفد عليها فى أواخر القرن الثانى للهجرة أبو محمد عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية المشهورة باسمه، وأقام بمصر إلى ان توفى سنة ٢١٣هـ. وقد تأثر كتابه السيرة بمصر وعلمائها فنراه يروى أحياناً عن ابن لهيعة وغيره. وزار مصر مرتين المؤرخ الكبير ابن جرير الطبرى ونقل عن محدثيها ومؤرخيها، كما زارها المسعودى وكتب الفصول القيمة عن تاريخها فى كتابيه «مروج الذهب» و«أخبار الزمان».

واضح أن هذه الحركة العلمية الأولى كانت مقصورة على الفسطاط والإسكندرية، وهما مركز القوات العربية الإسلامية الأولى، يقول المقرئى: «إن الديار المصرية لما افتتحها المسلمون كانت خاصة بالقبط والروم. مشحونة بهم، ونزل الصحابة - رضى الله عنهم - من أرض مصر موضع الفسطاط الذى يعرف الآن بمدينة مصر، وبالإسكندرية، وتركوا سائر قرى مصر بأيدي القبط، ولم يسكن أحد من المسلمين بالقرى، وإنما كانت رابطة تخرج إلى الصعيد، حتى إذا جاء أوان الربيع انتشر الأتباع فى القرى لرى الدواب ومعهم طوائف من السادات.. ولم ينتشر المسلمون بالنواحي إلا بعد عصر الصحابة والتابعين، ولم يؤسسوا فى القرى والنواحي مساجد.. فلما أوقع المأمون بالقبط (بعد ثورتهم سنة ٢١٦هـ) غلب المسلمون على أماكنهم من القرى».

المدرسة الأدبية:

ولم تلبث هذه الدراسات الدينية التاريخية أن أنتجت نوعاً جديداً من الدراسات الأدبية، وبدأت هذه الدراسات ضعيفة أول الأمر، ثم نمت وقويت وازدهرت، وساعد على نموها وازدهارها عوامل كثيرة، أهمها:

١ - عناية هؤلاء العلماء والفقهاء بدراسة الأدب ورواية الشعر، إذ كان الكثيرون منهم شعراء، كالإمام الشافعي مثلاً، فإن الكتب التي ترجمت له تروى الكثير من شعره.

٢ - تشجيع كثير من الولاة والأمراء للأدباء والشعراء، فوفد على مصر في العصر الأول كثيرون من كبار شعراء العرب، منهم جميل بثينة - ويقال إنه مات بمصر - وكثير عزة، وعبد الله بن قيس الرقيات، وكذلك وفد عليها في العصر العباسي أبو نواس، والمتنبي، وفي صحن المسجد العتيق وبين حلقاته العلمية نشأ الشاعر الكبير أبو تمام، فقد كان يسقى الماء في الجامع ويتلقى العلم على شيوخه..

وكتب العصريين الطولوني والإخشيدي تذكر كيف أجزل حكام هاتين الدولتين العطاء للأدباء والشعراء، يقول النابلسي في كتابه: «حسن السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة»: «رأيت كتاباً قدر أثنى عشرة كراسة مضمونة فهرست شعراء الميدان الذي لأحمد بن طولون.. فإذا كانت أسماء الشعراء في ثننى عشرة كراسة كم يكون شعرهم؟»^(١).

ومن هذا القول يتضح كيف ازدهرت دولة الشعر في عهد الطولونيين، وهذا أمر طبيعي فقد استقلت مصر في هذا العهد ونعمت بانتشار الأمن والرخاء وأحست القوة والعزة، وعهود الاستقلال دائماً عهود ازدهار للحضارة والعلوم والآداب.

ولم يعد المسجد العتيق - مسجد عمرو بن العاص - وحده مكان الدرس، بل تكونت حلقات كثيرة في المساجد الأخرى التي أنشئت في الفسطاط وضواحيها وخاصة جامع - ابن طولون، كما كانت تعقد مجالس أخرى تدور فيها المساجلات العلمية والأدبية في سوق الوراقين^(٢) بالفسطاط، وفي دور الوزراء، كدار الوزير أبي على الحسين بن محمد المدرائي^(٣)، ودور الأمراء، كدار أبي القاسم أو نوجور^(٤)، ودار كافور^(٥)، وفي دور الثروة^(٦) من تجار الفسطاط أيضاً.

(١) ينقل هذا عنه المقرئ في الخط، ج ١، ص ١٢٤.

(٢) ابن زولاق: أخبار سيبويه المصري، ص ١٨.

(٣) ابن زولاق: أخبار سيبويه المصري، ص ٣٤.

(٤) نفس المرجع، ص ٣٦.

(٥) نفس المرجع، ص ٤١.

(٦) نفس المرجع، ص ١٩.

وقد زار مصر في هذا العصر الأول من كبار شعراء العرب، جذبهم إليها - في جملتهم - طمع في عطاء ولاتها، أو سعى وراء ثراء وجاه، ولهذا كان معظم شعر هؤلاء إما مدحاً لمن قصدوه من ولاة، أو هجاء مقذعاً لهم إذا لم يحققوا لهم آمالهم، ومع هذا فقد اتصل هؤلاء الشعراء بشعراء مصر، وقامت بين هؤلاء وأولئك مساجلات أدبية وشعرية كثيرة، وكان لمصر أثر جد واضح في شعرهم الذي قالوه أثناء مقامهم في مصر.

من هؤلاء أبو نواس الذي وفد على مصر حوالي سنة ١٩٠هـ طامعاً في عطاء الخصب صاحب خراجها، ومدحه مدائح كثيرة كانت أولها قصيدته التي يشير فيها بوضوح إلى الغرض من رحلته وهو طلب الغنى، وفيها يقول:

تقول التي عن بيتها خف مركبي عزيز علينا أن نراك تسيير
أما دون مصر للغنى متطلب؟ بلى، إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها، واستعجلتها بواد جرت، فجرى في جريهن عبير
زيرني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيهِه الخصب أمير

وقد كثرت قصائده في هذا المعنى، ومن أشهرها قوله:

أنت الخصب، وهذه مصر، فتدفقا، فكلاكما بحر
لا تقعدا بي عن مدى أملى شيئاً، فما لكما به عذر
ويحق لي إذا صرت بينكما ألا يحلل بساحتي فقر

وقد ذكر السيوطي أن أدباء مصر وشعراءها تسابقوا للاجتماع بأبي نواس ومصاحبته وكتابة شعره، وفي ديوان أبي نواس إشارات لبعض المساجلات الشعرية التي دارت بينه وبين شعراء مصر:

ومن الشعراء الذين زاروا مصر الشاعر الهجاء دعبل الخزاعي، جاءها طامعاً في نوال وال آخر من ولاة مصر هو المطلب بن عبد الله الخزاعي - وكان قريباً له - ومدحه أولاً بقصيدته التي مطلعها:

أبعد مصر وبعيد مطلب ترجو الغنى، إن ذا من العجب

وقد ولاه المطلب إقليم أسوان، فأقام به أياماً ولكنه لم يرض عن مقامه به، فقد كان يطمع فيما هو أحسن، فهجاه، واضطر المطلب أن يعزله.

وكان ثالث الشعراء الطامعين في غنى مصر وعطاء ولاتهما الشاعر الكبير المتنبي، وقد أثار مجيئه إلى مصر نشاطاً أدبياً كبيراً في الفسطاط، وشعره في مدح كافور وهجائه أشهر من أن

يذكر، وقد انتقد شعره بعض أدباء الفسطاط، يقول ابن زولاق فى كتابه «أخبار سيبيويه المصرى».

لما كان يوماً من الأيام، اجتاز المتنبى بمسجد ابن عمرو وسبيويه على المسجد، فقيل هذا سيبيويه، فوقف عليه وقال: أيها الشيخ قد كنت أحب أن أراك، فقال له: رعاك الله وأبقاك وأراك محابك، فقال له (المتنبى): بغنى أنك أنكرت قولى:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صدافته بد
فما كان الصواب عندك؟.

فقال له: العداوة ضد الصداقة، ولكن لو قلت:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من مداراته بد
وهذا رجل منا قد قال:

أتانى فى قميص اللاذ^(١) يسعى عدو لن يلقب بالحبيب
فقال له المتنبى: مع هذا غيره؟.
فقال نعم:

فقلت له متى استعملت هذا ؟ لقد أقبلت فى زى عجيب
فقال: الشمس أهدت لى قميصا مليح اللون من شفق الغروب
فثوبى والمدام ولون خدى قريب من قريب من قريب

فتبسم المتنبى وانصرف، وسيبيويه يصيح ويقول: انبكم^(٢).

وفى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى، كانت فى الفسطاط نخبة من العلماء والأدباء والشعراء والمؤرخين، وكان لهم نشاط ملحوظ فى البحث والمساجلة والتدريس والتأليف، منهم: أبو القاسم بن قديد، وتلميذه أبو عمر الكندى - المؤرخ - وأبو جعفر النحاس المصرى الشاعر الكاتب، وأبو بكر محمد بن موسى الملقب بسيبيويه المصرى، والحسن بن زولاق إلخ، وكتاب ابن زولاق «أخبار سيبيويه المصرى» مفعم بالمساجلات الأدبية والعلمية التى كانت تدور بين أفراد هذه الجماعة الممتازة فى صحن المسجد الجامع أو منازل الوزراء والكبراء والخاصة.

وقد وفد على مصر فى أواخر القرن الرابع الجغرافى والرحالة العربى المقدسى، ووصف فى كتابه «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» نشاط الحياة العلمية فى مساجد الفسطاط، قال:

(١) اللادة ثوب حرير أحمر صينى، وجمعها لاذ.

(٢) أخبار سيبيويه المصرى، ص ٤٥.

«وبين العشائين جامعهم مغتص بحلق الفقهاء وأئمة القراء، وأهل الأدب والحكمة، دخلته مع جماعة من القادسة، فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين: دوروا وجوهكم إلى المجلس، فننظر فإذا نحن بين مجلسين، على هذا جميع المساجد، وعددنا فيه مائة وعشرة مجالس، فإذا صلوا العشاء أقام البعض إلى ثلث،.. ولا ترى أجمل من مجالس القراء به..»^(١)

المدرسة العلمية:

وقد نشأت في مصر إلى جانب هذه الحياة الدينية الأدبية حياة علمية خالصة هي في الواقع استمرار للحياة العلمية التي كانت قائمة في مصر في العصور القديمة، وكانت أنشط ما تكون في الإسكندرية، وقد عنيت هذه الحركة العلمية بعلوم الهندسة والطب والفلك والتنجيم.. إلخ، ونقلت الكتب القديمة عن القبطية واليونانية والسريانية، فكان معظم المشتغلين بها من النصارى واليهود، ثم انضم إليهم بعد قليل المسلمون الذين نبغوا في هذه العلوم.

ومما يؤيد استمرار نشاط الحركة العلمية في الإسكندرية بعد الفتح العربي ما ذكره ابن النديم في الفهرست من أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية عندما أراد أن يتعلم الكيمياء أمر باستدعاء جماعة من الفلاسفة اليونانيين الذين كانوا يقيمون في الإسكندرية، وأمرهم بنقل كتب الصنعة (أو الكيمياء) من اللغتين القبطية واليونانية إلى اللغة العربية، وكان هذا أول نقل إلى العربية في الإسلام..

وذكر ابن أبي أصيبعة في كتابه «طبقات الأطباء» أنه كان يوجد في الإسكندرية في العصر الإسلامي الأول طبيب اسمه ابن أبحر وكان يدرس بها، وكان عمر بن عبد العزيز يعتمد عليه في صناعة الطب حين كان أميراً أو بعد أن أصبح خليفة.

ويتحدث نفس المؤلف عن طبيب مصرى شهير اسمه «بليطيان» ويقول أنه كان عالماً بشريعة المالكية، وقد دعاه الرشيد ليعالج إحدى جواربه - وكانت مصرية - فشفيت بعد علاجه لها، فوصله الرشيد بعطايا كثيرة، وكتب له منشوراً ببرد الكنائس التي أخذها اليعاقبة، وتوفى بليطيان سنة ١٨٦هـ.

وقد ازدهرت هذه الحركة في عصر بنى طولون لتشجيعهم العلماء وعناية أحمد بن طولون بالحالة الصحية في مصر، فقد أنشأ فيها أول بيمارستان أنشئ في مصر الإسلامية، ونبغ في عهده عدد من الأطباء المسيحيين والمسلمين، أشار إلى بعضهم البلوى، منهم الحسن بن زيرك، وكبير أطبائه سعيد بن توفيل^(٢).

(١) المقدسى . أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٥ .

(٢) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، ص ٣١٩ - ٣٢٥ .

وتثبت المنشآت العمرانية الكثيرة التي أقامها أحمد بن طولون وابنه خمارويه مدى ما وصل إليه المهندسون في القسطاط والقطائع من تقدم علمي، وقد أشارت المراجع إلى المهندس الذي أشرف على بناء المنشآت الهامة التي أقامها أحمد بن طولون، وهي السقاية والعين والمسجد، واسمه سعيد بن كاتب الفرغاني، وذكر المقرئ أن ابن طولون غضب عليه مرة فسجنه، فلما أراد بناء مسجده قيل له إنه يحتاج إلى ثلاثمائة عمود، وتعذر الحصول على هذا العدد الكبير من الأعمدة، وبلغ هذا الخبر المهندس في سجنه، فأرسل إليه من سجنه يقول: أنا أبنيه بلاعمد سوى عمودي القبلة، فاستدعاه ابن طولون، وعرض عليه سعيد مخطط المسجد كما صممه، فرضى عنه وكلفه ببناء المسجد فبناه^(١).

وفي العصر الفاطمي والأيوبي تم ازدهار هذه الحياة العلمية فأينعت وأثمرت، وأصبحت القسطاط مركز حركة علمية واسعة النطاق، وظهر فيها كثيرون من العلماء المصريين، كما وفد على مصر علماء وأطباء من مختلف بلاد العالم الإسلامي، مشرقاً ومغرباً.

ففي عصر الخليفة الحاكم نبيغ طبيب يهودي مصري شهر باسم «الحقير النافع»، ويروى القفطي أنه سمي بهذا الاسم لأنه كان جراحاً خاملاً، فأصيب الخليفة الحاكم بجرح خطير، وظل مدة طويلة دون أن يبرأ، رغم أن ابن مقشر وغيره من أطباء الخاص كانوا يبذلون الجهد لعلاجه، ثم أحضر له هذا الطبيب فشفى الجرح في ثلاثة أيام، فأنعم عليه الحاكم بألف دينار، وخلع عليه وضمه إلى أطباء الخاص، ولقبه بهذا اللقب الذي شهر به «الحقير النافع»^(٢).

ونبيغ في القسطاط في عصر الحاكم كذلك على بن عبد الرحمن بن يونس بن عبد الأعلى المصري المنجم - وقد أشرنا من قبل إلى والده المؤرخ - يقول القفطي في ترجمته له: «كان والده عبد الرحمن بن يونس محدث مصر ومؤرخها، وأحد العلماء المشهورين بها وجده يونس بن عبد الأعلى صاحب الشافعي»^(٣). وقد اشتغل على بن عبد الرحمن بن يونس بعلم الفلك والتنجيم علماً وعملاً، وكان من المقربين للخليفة الحاكم.

وقد سبق ابن يونس العالم الإيطالي غاليليو إلى اختراع الرقاص (بندول الساعة)، يقول بهذا الأستاذ قدرى حافظ طوقان في كتابه «العلوم عند العرب» معتمداً على أقوال كثير من الباحثين الأوروبيين الذين ألفوا في تاريخ العلم فقد قال في ص ١٤٢: «يعتقد الكثيرون أن الرقاص (بندول الساعة) من مخترعات العالم الإيطالي الشهير «غاليليو» وأن هذا العالم أول من استطاع أن يستعمله ويستفيد منه وهؤلاء الكثيرون قد يستغربون إذا قيل لهم إن هذا غير صحيح، وأن

(١) انظر: أحمد تيمور: أعلام المهندسين في الإسلام، ص ٢٤.

(٢) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٣) نفس المرجع، ص ١٥٥.

الفضل فى اختراعه إلى عالم عربى مسلم، عاش فى مصر وعاش على ضفاف النيل، وقد سبق غيره فى استعماله فى الساعات الدقاقة، وبذلك يكون غاليليو مسبقاً فى هذا الاختراع بستة قرون.

ويعتبر أبو سعيد عبد الرحمن بن يونس من فحول علماء القرن الخامس الهجرى (١١م) وأعظم فلكى ظهر فى تاريخ مصر الإسلامية، وقد عرف الخلفاء الفاطميون قدره فأجزلوا له العطاء وشجعوه وبنوا له مرصداً خاصاً جنوبى القسطنطينية يقوم فيه برصد الكواكب وإجراء بحوثه، وقد سجل نتائج بحوثه فى الزيج الذى وضعه بأمر من الخليفة العزيز وأئمة فى عهد خلفه، ولذلك نسب إليه وعرف بـ «الزيج الحاكمى»، وقد نشر العالم الفرنسى كوسان Caussin الأجزاء الباقية من هذا الزيج مع ترجمة فرنسية.

وفى عهد الحاكم كذلك وفد على مصر الحسن بن الهيثم المهندس والعالم الإسلامى الرياضى الكبير، وهو «صاحب التصانيف والتأليف المذكورة فى علم الهندسة، وكان عالماً بهذا الشأن متقناً له، متفنناً فيه، قيماً بغوامضه ومعانيه، مشاركاً فى علوم الأوائل، أخذ الناس عنه واستفادوا منه»^(١).

وقد نقل عنه مرة أنه قال: «لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملاً يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص»^(٢). وعلم الخليفة الحاكم بما قال، وكان يعميل إلى هذا النوع من الأبحاث العلمية، واشتغل هو نفسه بعلوم الحكمة والفلسفة والتنجيم، فأرسل إليه مالا ورغبة فى الحضور إلى مصر، فلما حضر إليها خرج للقائه بنفسه خارج القاهرة، وزوده بما طلب من مال وعمال مساعدين، وتنقل ابن الهيثم فى مصر حتى وصل إلى جنادل أسوان، ولكن يبدو أنه لم يوفق لتنفيذ مشروعه، فخشى بأس الحاكم - وكان متقلباً شديد البأس - فادعى الجنون وحجز فى منزله، وظل على ذلك إلى أن قتل الحاكم، فأظهر العقل ثانية وخرج من داره، غير أنه أقام بقية حياته متنسكاً فى الجامع الأزهر حتى مات سنة ٤٣٠ هجرية تقريباً، وله مؤلفات كثيرة فى مختلف فروع علوم الرياضة وفى الفلك والفلسفة والطب^(٣) .. إلخ.

(١) القفطى، نفس المرجع، ص ١١٤.

(٢) القفطى، نفس المرجع، ص ١٢٤.

(٣) نفس المرجع، ص ١١٤ - ١١٦.

الباب الخامس

علاقات مصر بالخلافة

- ١- الفتنة الكبرى .
- ٢- ثورة عبد الله بن الزبير .
- ٣- موقف المصريين من مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية .
- ٤- الدعوة لبني الحسن إبان ولاية يزيد بن حاتم على مصر .
- ٥- الموقف أثناء النزاع بين الأمين والمأمون .
- ٦- العلاقات بين مصر والخلافة العباسية فى عهد الطولونيين .
- ٧- الإخشيد والخلافة العباسية .

oboikeyandi.com

علاقات مصر بالخلافة

فتحت مصر في عهد عمر بن الخطاب ، ومنذ ذلك الحين أصبحت ولاية من الولايات الخاضعة للخلافة الإسلامية ، غير أن مصر كانت تمتاز عن الولايات الأخرى بمركزها الجغرافي وثروتها وتاريخها وحضاراتها القديمة ، ولهذا لم تقف من الخلافة موقفاً سلبياً ، بل شاركت مشاركة فعلية في جميع الأحداث السياسية التي خضعت لها الخلافة الإسلامية -- في المدينة ، أو الكوفة ، أو دمشق - أو بغداد - وكان لاشتراكها أثر واضح في النتائج التي انتهت إليها هذه الأحداث . وسنحاول فيما يلي أن نعرض لهذه الأحداث وللدور الذي لعبته مصر إبان حدوثها :

١ - الفتنة التي انتهت بقتل عثمان :

اتجه عثمان في خلافته إلى تفضيل ذوى قرياه ، واستعمالهم على الولايات المختلفة . مما أثار غضب المسلمين ، فكثرت النقود . وأخذ أنصار على ومؤيدوه يعملون لتحويل الخلافة من عثمان إليه .

وكان على رأس الساخطين على سياسة عثمان الناقلين عليها وعلى معاوية -- عامله على الشام - أبو ذر الغفارى ، وهو صحابى ومحدث جليل عرف بالزهد والورع والتقوى ، ولهذا راعه ما كان يراه من تكالب عمال الولايات من أقرباء عثمان وبعض كبار المسلمين على اقتناء العقار وإدخار المال .

وظهر في ذلك الحين أيضاً رجل من سكان اليمن اسمه عبد الله بن سبأ ، كان يهودياً ثم أسلم . ويقال إنه تظاهر بالإسلام ليعمل على تقويض أركانه والفرقة بين أتباعه . فقد ارتحل بعد إسلامه إلى أمصار الدولة الإسلامية ، فزار الحجاز ، وتركها إلى العراق فمر بالبصرة والكوفة ، ثم سافر إلى الشام ومصر ، وكان في كل هذه الولايات يثير الشكوك نحو سياسة عثمان ، ولم يجد أذناً تصغى إليه كما أصغى إليه أبو ذر عندما قابله في الشام ، فقد شكاه إليه معاوية وسياسته فقال : (يا أبا ذر : ألا تعجب إلى معاوية يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتجبه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين من ديوان العطاء) .

وهكذا ظل ابن سبأ يوغر أبى ذر ويحرضه ، وأبو ذر رجل طيب القلب ، متدين شديد الإيمان بتعاليم الإسلام ، فراح يحرض الفقراء ضد الأغنياء حتى استمعوا له ، والتفوا حوله ، وأخذوا يتحرشون بالأغنياء ، ويسينون إليهم مما اضطرهم إلى الشكاية لمعاوية الذى رفع الأمر إلى عثمان .

بعث عثمان فطلب أبا ذر ، فلما وصله أمره أن يقيم فى الربذة - وهى قرية قريبة من المدينة- ولكن أبا ذر لم يهدأ ، بل واصل حملاته ضد عثمان وسياسته إلى أن مات سنة ٣١هـ .

ويجب علينا أن نفرق بين الدوافع التى كانت تدفع كلاً من الرجلين إلى إثارة الشعور فى العالم الإسلامى ضد عثمان ، فمن البديهي أن أبا ذر كان رجلاً سليم النية يريد بالحكام أن يرجع دائماً إلى تعاليم الإسلام ، وأن يتشبه فى سياسته بالرسول وكبار الصحابة فى العهد الأول . أما ابن سبأ فلم يكن سليم الغرض . بل كانت له ولؤيديه فى الولايات المختلفة أغراض سياسة ترمى إلى قلب نظام الحكم القائم ، وتفريق كلمة المسلمين ، وقد ساعدتهم الظروف على تحقيق بغيتهم ، كما ساعدتهم الأخطاء الى وسمت بها سياسة عثمان ، التى غالوا فى وصفها وتقدير خطورتها .

دخل ابن سبأ - بعد تركه الحجاز - إلى البصرة ثم إلى الكوفة حيث وجد الناس ناقمين على ولاية عثمان لاشتطابهم فى جمع الضرائب ، فاتصل بالثائرين هناك وعقد معهم الاجتماعات الكثيرة وهو يزيد نار سخطهم اضطراراً ، حتى لعن عثمان على ملأ من الناس .

ثم طرد ابن سبأ من المدينتين ، فذهب إلى الشام ، ولكنه لم يجد أحداً يستمع إليه هناك غير أبى ذر ، فالشام شيعية معاوية وأنصاره قد اصطنعهم بحسن سياسته ، ولهذا ترك الشام إلى مصر .

وقد ساعد ابن سبأ على نشر دعوته فى مصر ثلاثة من كبار الصحابة كانت نفوسهم ملأى بالسخط على عثمان وولاته وسياسته .

أما أولهم فهو محمد بن أبى حذيفة ، وكان هذا الرجل قد تربى فى كنف عثمان بعد وفاة أبيه ، فلما ولي عثمان الخلافة طلب ابن أبى حذيفة أن يلى بعض أمور المسلمين ، فرفض عثمان ما طلب ، فقد وصله أنه يشرب الخمر فقال له : (لو كنت رضيعاً لوليتك ، ولكنك لست هناك)^(١) .

ثم اشترك محمد بن أبى حذيفة بعد ذلك مع عبد الله بن سعد بن أبى السرح - عامل عثمان على مصر - فى موقعة ذات الصواري (٣١هـ / ٦٥١م) التى كانت بين المسلمين والبيزنطيين ، وفى هذه الموقعة حدث بين الرجلين خلاف شكلى ملخصه : أن ابن أبى حذيفة رفع صوته بالتكبير وهو يصلى العصر بالناس ، فهناه ابن أبى السرح عن ذلك ، فلما كانت صلاة المغرب عاد ابن أبى حذيفة فرفع صوته بالتكبير ، فنهزه ابن أبى السرح ، وهم بطرده من جيشه ، فأسرهما فى نفسه ، ولما انتهت الموقعة عاد إلى القسطنطينية ، وانضم إلى ابن سبأ فى دعوته ضد

(١) الفاطميون فى مصر ، ص ١٨ .

عثمان أولاً ولعلى ثانياً، وقد افتن ابن أبي حذيفة في إثارة الشعور ضد عثمان وولايته ، فكان كما يقول الكندي : (يكتب الكتب على السنة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يأخذ الرواحل فيضمرها، ثم يأخذ الرجال الذين يريد أن يبعث بذلك معهم ، فيجعلهم على ظهور البيوت فيستقبلون بوجوههم الشمس لتلوحهم تلويح المسافر ، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر ، ثم يرسلون رسلاً يخبرون بهم الناس ليلقوهم. وقد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا: ليس عندنا خبز، الخبز في الكتب . ثم يخرج محمد بن أبي حذيفة والناس كأنه يتلقى رسل أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - فإذا لقوهم قالوا: لا خبر عندنا عليكم بالمسجد، فيقرأ عليهم كتب أزواج النبي، فيجتمع الناس في المسجد اجتماعاً ليس فيه تقصير، ثم يقوم القارئ بالكتاب فيقول: إنا لنشكو إلى الله وإليكم ما عمل في الإسلام وما صنع في الإسلام. فيقوم أولئك الشيوخ من نواحي المسجد بالبكاء ..^(١) .

وصلت هذه الأخبار إلى عثمان ، فحاول أن يصلح بينه وبين حذيفة فأرسل إليه كسوة وثلاثين ألف درهم ، ولكن ابن أبي حذيفة كان رجلاً موتوراً ، فاشتد في اللجاج، وانتهز فرصة هذه الهدية ليرتفع في أعين الناس وليزيدهم كرها في عثمان ، فأظهر الهدية للناس في المسجد وخاطبهم قائلاً:

(يا معشر المسلمين ، ألا ترون أن عثمان يخادعني ديني ويرشدني؟)^(٢) .

وحاول عثمان محاولة ثانية ، فبعث إلى مصر سعد بن أبي وقاص لينظر في أمر ابن أبي حذيفة والخارجين معه على يرضيهم ، وسمع ابن أبي حذيفة بمقدمه، فخطب الناس وقال: (ألا إن الكذاب كذا وكذا قد بعث إليكم سعد بن مالك ليفل جماعتكم ويشنت كلمتكم ويوقع التخاذل فيكم فانفروا إليه)^(٣) . وخرج معه نحو مائة رجل فوجدوا ابن أبي وقاص مقبلاً في قسطاطه ، فقلبوه عليه وشجوه وسبوه ، فركب راحلته وعاد من حيث أتى .

أما ثاني هؤلاء الثلاثة ابن أبي بكر ، فقد دفعه إلى الانضمام لشيعة على ما كان بينه وبين على من ناحية، وبين الحسين بن على من ناحية أخرى من صلة النسب ، وذلك أن علياً قد تزوج بأسماء بنت عميس أم محمد بن أبي بكر بعد وفاة الصديق، وكذلك كان محمد والحسين زوجين لابنتي يزيدجرد الثالث آخر ملوك بني ساسان من الفرس.

(١) الكندي : ١٤ - ١٥ . وقد وردت هذه الرواية أيضاً في المقرئى . الخطط ١٤٧/٤ مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ .

(٢) حسن إبراهيم : الفاطميون في مصر ، ص ١٩ .

(٣) الكندي . ص ١٦ .

وأما ثالثهما وهو عمار بن ياسر ، فقد وفد على مصر رسولاً من قبل عثمان لدراسة الحالة والبحث في أسباب تدمير الناس ، ولكن ابن سبأ وشيعته استمالوا عماراً ، فانضم إليهم ولم يعد ، وقد يكون السبب في ذلك أن عثمان كان قد أدب عماراً - وهو الصحابي الجليل - لقتل بدر منه في حق عباس بن عتبة بن أبي لهب .

وعندما اشتدت الثورة في الولايات ضد عثمان ذهبت وفود مختلفة إلى المدينة لتقديم الشكوى إلى الخليفة نفسه . وكلنا نعرف الدور الخطير الذي لعبه وفد مصر في الشكاية لعثمان ثم في الثورة ضده وحصاره في بيته إلى انتهى الأمر بقتله .

وكان عبد الله بن سعد بن أبي السرح هو والى مصر عندما بدأت الشكوى ضد عثمان ، فخرج منها إلى المدينة لمقابلة عثمان ، واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني . فلما اشتدت الثورة في مصر ، خرج الأمر من يد عقبة وأصبح في يد محمد بن أبي حذيفة ، ثم عاد عبد الله بن سعد إلى مصر بعد قليل ، فلما وصل القلزم خرجت عليه جنود ابن أبي حذيفة ومنعوه من الدخول إلى مصر ، فانصرف عنها إلى عسقلان في الشام ، وهناك سمع بمقتل عثمان .

٢ - ثورة عبد الله بن الزبير :

وفي خلافة يزيد بن معاوية ثار عبد الله بن الزبير في الحجاز وطلب الخلافة لنفسه ، وأيده في موقفه جماعة من أهل مصر ، وأرسلوا إليه وفدًا منهم يسأله أن يبعث إليهم بأمر ، يقومون معه ويؤازرونه^(١) ، فبعث إليهم ابن الزبير بعبد الرحمن بن جحدم والياً ، فقدم إليها في طائفة من الخوارج ، فوثبوا على والى مصر من قبل يزيد - وهو سعيد بن يزيد بن علقمة - وعزلوه ، وفي هذه الأثناء توفي يزيد بن معاوية وولى الخلافة مروان بن الحكم ، فخرج إلى مصر في جيش من أهل الشام ، واستعد عبد الرحمن بن جحدم وحفر خندقاً حول القسطنطينية ليدافع عن المدينة من ورائه ، وبعد أن طال الحرب بين الفريقين شهوراً سعى في الصلح بينهما ، ودخل مروان مصر في أول جمادى الأولى سنة ٦٥هـ ، وعزل ابن جحدم بعد أن حكم مصر تسعة أشهر ، ووليها من بعده عبد العزيز بن مروان من قبل أبيه .

٣ - موقف المصريين من مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية :

ولما هزم مروان بن محمد أمام جيوش العباسيين ، عزم على الفرار إلى مصر . ولكن جند مصر أجمعوا على منعه إن هو سار إليها^(٢) وأتى مروان ، فاستمال إليه أهل الحوف الشرقي وسودهم واستعان بهم . وثارته ضده فتن في بعض بلاد مصر كرشيد والكربون فأخضعها ، ثم تبعته جيوش العباسيين بقيادة صالح بن علي العباسي ، وتبعه حتى قتل في بوسير سنة ١٣٢هـ .

(١) الكندي : ص ٤٢ .

(٢) الكندي : ص ٤٢ .

٤ - الدعوة لبني الحسن :

وفى ولاية يزيد بن حاتم على مصر (١٤٤هـ - ١٥٢هـ) من قبل أبي جعفر المنصور ظهرت فى مصر الدعوة لبني الحسن بن على ، وبايع الناس علياً بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن الحسن بن على ، وأحكم أنصاره المؤامرة ، وسطوا على بيت المال فى مسجد عمرو فى الليل ، غير أن رجلاً منهم أبلغ الوالى خبرهم ، فأرسل إليهم بالجند ، فقبضوا على نفر منهم واختفى البعض الآخر . أما على بن محمد صاحب الدعوة ، فاختلف الرأى فيه ، فقيل إنه حمل إلى أبى جعفر ، وقيل إنه اختفى حتى مات فى عهد المهدي .

٥ - الموقف أثناء النزاع بين الأمين والمأمون :

ولما قام النزاع بين الأمين والمأمون ، اختلف الناس والجند فى مصر وتكلموا فى خلع الأمين وتولية المأمون (وكتب المأمون إلى أشرف أهل مصر يدعوهم إلى القيام بدعوته فكلهم أجابوا سرّاً^(١) . وكان عباد بن محمد بن حيان هو داعية المأمون فى مصر ، فجمع الجند فى المسجد الجامع ودعاهم إلى خلع الأمين ، فأجابوه وبايعوا المأمون فى الثامن من رجب سنة ١٩٦هـ . وأبعد جابر بن الأشعث والى مصر من قبل الأمين ، ووليها عباد بن محمد بن حيان من قبل المأمون .

وعلم الأمين بما حدث ، فكتب إلى ربيعة بن قيس الجرشى - رئيس القبائل القيسية بالحواف - بولايته على مصر ، وكتب إلى شيوخ القبائل النازلة بالحواف بمساعدة قيس ، فأظهر أهل الحواف جميعاً - يمناً وقيساً - الولاء لمحمد الأمين وساروا بقيادة ربيعة إلى الفسطاط ، فى آخر ربيع الآخر سنة ١٩٧هـ لمحاربة أهلها وجندها ، فخندق عباد على الفسطاط ، وحدثت معارك بين الفريقين كان النصر فيها لأنصار الأمين ، وقبض على عباد ، وأرسل إلى الأمين فقتله . وبعد قليل قتل الأمين ، وبويع للمأمون فى المحرم من سنة ١٩٨هـ ، فتفرق أهل الحواف وهدأت الفتنة . وولى على مصر المطلب بن عبد الله من قبل المأمون .

٦ - العلاقة بين مصر والخلافة العباسية فى عهد الطولونيين :

ولى أحمد بن طولون على مصر نائباً عن بقبق - أو باكباك - ثم لم يلبث أن عهد إليه بولايتها ، وكان ابن طولون رجلاً طموحاً . فسعى للاستقلال بمصر ، واستطاع أن يتغلب على الصعاب الكثيرة التى اعترضت سبيله ، واتخذ لنفسه جيشاً قوياً بلغ ١٠٠,٠٠٠ جندي من المصريين والروم والأتراك والسودانيين ، وعنى بالأسطول أيضاً . فبنى دار الصناعة فى الجزيرة .

(١) الكندى : ص ٤٨ .

وفى سنة ٢٥٦هـ ولى الخلافة العباسية الخليفة المعتمد . وكان محباً للهو ، فقسم مملكته قسمين . وعهد بإدارة القسم الشرقى لأخيه الموفق طلحة ، كما عهد بإدارة القسم الغربى لابنه جعفر ولقبه المفوض إلى الله . وفى سنة إحدى وستين عهد بولاية العهد من بعده لابنه المفوض إلى الله جعفر ثم من بعده لأخيه الموفق طلحة ، (وولى ولده المغرب ومصر والشام والجزيرة وأرمينية ، وولى أخاه المشرق والعراق وبعداد والحجاز واليمن وفارس ، وأصبهان ، والرى ، وخراسان ، وطبرستان ، وسجستان والسند)^(١) وعلق العهد فى الكعبة .

وفى ذلك العهد نشبت ثورة الزنج فى القسم الشرقى من الدولة العباسية ، وادعى قائدها على بن محمد بن عبد الرحيم أنه من سلالة زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، واشتدت ثورتهم حتى دخلوا البصرة فى سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨ م) وخربوها . وبذل الموفق جهده للقضاء على هذه الثورة ، ولكن إيرادات هذه القسم الشرقى لم تف بنفقات الجند ، وعلى الرغم من أن مصر لم تكن جزءاً من القسم الشرقى الخاضع للموفق فقد أرسل الموفق خطاباً لابن طولون يصف له خطر الزنج وثورتهم ويسأله أن يرسل له من المال ما يمكنه من القضاء على هذه الثورة .

وعلم ابن طولون فى نفس الوقت أن رسل الموفق كانوا يحملون كتباً من الموفق لقواده يحرضهم فيها على الخروج على ابن طولون ومعه هذا آله ما كان من ثورة الزنج وأرسل للموفق ١,٢٠٠,٠٠٠ ديناراً وهدايا كثيرة:

ويبدو أن الموفق كان يحقد على أخيه المعتمد ويطمع فى الخلافة ، ولم يكن راضياً أيضاً عن تولية القسم الشرقى ، لأن القسم الغربى أغنى وأفضل ، فلم يقنع بال مبلغ الذى أرسله إليه ابن طولون ، وأرسل يطلب منه مزيداً ، ثم حاول أن يعزله عن مصر .

لم يلتفت ابن طولون إلى طلب الموفق ، وإنما أرسل إليه خطاباً يعلن فيه أنه لا علاقة تربطه به وأنه يلى مصر بأمر الخليفة المعتمد ، قال فى هذا الخطاب : «أما بعد ، أطال الله بقاء الأمير وأدام عزه ، فقد وصل إلى كتاب الأمير - أيدى الله - وفهمته ، وقد كان الأمير - أسعده الله - حقيقاً بحسن التخيير لنفسه وإعمال الفكر فيما ينتظم به أسباب الصلاح يدركه ، وأن تؤديه رؤيته إلى إمالة مثلى ، إذ كنت باب السلطان وسيفه الذى يصون به ، وسنانه الذى يتقى الأعداء بحدده . على أنى لا أعرف السبب الذى يتيح الوحشة ويوقعها ، ولا الأمر الذى يدعو إليها ويوجبها ، إذ لم يكن بينى وبينه معاملة توجب مشاجرة أو تحدث منافرة ، وكان العمل الذى أنا بسببه ليس له ، والمكاتبة فى أمره ليست إليه ، وتقليدى ليس من قبله ، ولا أنا من ولاته . . . ولم يضطرنى بهذه الأبحاث التى لا أعرف دركاً فى استعمالها وحظاً فى

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٤٢-٢٤٣ .

ارتياحها . . . إلى ركوب خطة في أمره قد علم الله كراهيتي في ركوبها، وإلى أن أجعل ما أعدته لحياطة هذه الدولة المتكاثفة والعساكر المتضاعفة، على أنه (أى الموفق) لا ناصر له غير من يجتمع إليه من لغير المتعبدة وأدناس العامة. وليس مثل الأمير - أيده الله - في أصالة رأيه وحسن تدبيره، ونظره في عواقب أموره قصد لمائة ألف عنان هي عدة له فجعلها عليه . . .»^(١).

فلما وصل هذا الخطاب إلى الموفق غضب وطلب من قائده موسى بن بغا^(٢) أن يسير لعزل ابن طولون عن مصر، وعين ماجور - حاكم الشام - والياً على مصر بدلاً منه. غير أن ماجور لم يرسل قرار تعيينه لابن طولون لأنه لم يكن من القوة بحيث يستطيع التغلب على جيوش مصر، أما موسى بن بغا فقد سار إلى الرقة وبدأ يتخذ الأهبة ويعد العدة لعزل ابن طولون بقوة الجيش. وعلم ابن طولون بما يفعل ابن بغا، فحصن الفسطاط وبنى قلعة ليحتمى بها في الجزيرة، وأنشأ أسطولا يتكون من «مائة مركب حربية سوى ما يضاف إليها من العشاريات وغيرها . . .»^(٣) غير أن جند ابن بغا لم يلبثوا أن ثاروا ضده بعد شهرين وطالبوه بأعطياتهم، فاضطر إلى العودة إلى بغداد حيث مرض، فحمل إلى سامرا ومات بها بعد شهرين (صفر ٢٦٤هـ).

لم ييأس الموفق بل سعى لدى الخليفة المعتمد وطلب منه أن يعزل ابن طولون عن ولاية الثغور الشامية، ففعل مضطراً، ولكنه اضطر بعد قليل أن يعيده إليها، فقد عجز الولاة الآخرون عن المحافظة عليها.

وسعى ابن طولون - في نفس الوقت - لد أملاكه في الشام، فعند موت ماجور أناب ابن طولون ابنه العباس عنه في حكم مصر، وخرج إلى الشام بجنده وأستولى على الرملة ودمشق وحمص وأنطاكية (في سنة ٢٦٥ هـ)، وامتد نفوذه حتى الرقة، وذكر اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة في هذه البلاد، غير أنه اضطر للعودة سريعاً إلى مصر للقضاء على ثورة ابنه العباس.

وبعد إخضاع ثورة العباس، أناب عنه ابن طولون ابنه خمارويه وسار ثانية إلى الشام، فقد بدأ يفكر حينذاك في انقاذ الخليفة المعتمد من سيطرة أخيه الموفق عليه، ثم فكر لأول مرة في تاريخ مصر أن ينقل مركز الخلافة إليها فيزيد بذلك في مجده ويقوى نضاله ضد عدوه الموفق، ويذكر ابن الداية أنه كتب للخليفة الخطاب التالي :

«قد منعتي الطعام والشراب والنوم خوفاً على أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - من مكر يلحقه . . . وقد اجتمع عندي مائة ألف عنان، مؤلفة قلوبهم، مجتمعة آراؤهم؛ شديد بأسهم،

(١) ابن الداية، سيرة ابن طولون، ص ٢١ - ٢٤.

(٢) الكندي : ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة، ٢ / ١٩٩.

وأنا أرى لسيدى أمير المؤمنين، أدم الله عزه بالنصر والتمكين والانجذاب إلى مصر فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز، ولا يكن فيه ما يخافه في كل لحظة منه عليه . . .»^(١).
وفى نفس الوقت كان الخليفة قد اشتد به الضيق إذ أصبحت السلطة كلها فى يد أخيه الموفق وأصبح هو كالمحجور عليه، ويروى أنه احتاج مرة إلى ٣٠٠ دينار فلم يستطع الحصول عليها وأنشد هذه الأبيات:

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا وما من ذاك شيء فى يديه
إليه تحمل الأموال طرا ويمنع بعض ما يجى إليه

لهذا فكر المعتمد فى نفس الوقت أن يلجأ لابن طولون ويحتمى به، وانتهاز فرصة انشغال أخيه بالحرب مع الزنج وخرج من سامرا فى سنة ٢٦٩ هـ بحجة النزهة للصيد، وأراد الاتجاه إلى الشام لمقابلة أحمد بن طولون.

وعلم الموفق بخروج أخيه فأرسل إلى إسحاق بن كنداج - والى الموصل والجزيرة - يأمره أن يسعى لرد الخليفة إلى بغداد، ووعده إن نجح فى مسعاه أن يقطعه إقطاعاً ويصله بالمال، فخرج ابن كنداج يدفعه الحسد لابن طولون والطمع فى الإقطاع والمال، ودخل الموصل فعلم بأن الخليفة رحل عنها، فتابعه حتى لحقه بين الموصل والحديثة، فاستأذن فى مقابلته وطلب منه العودة إلى عاصمته، وجرى بينهما الحديث الآتى:

قال ابن كنداج: أخوك فى وجه العدو، عدوك وعدو دولتك، يقف على زوالك، عن مستترك، ومدينة آبائك، فينصرف عن مقاومته، ويخلى بينه وبين دار ملكك، وبهذا جاء كتابه».

فقال له المعتمد: «أفغلامى أنت أم غلامه؟» فقال: «كلنا يا أمير المؤمنين غلمانك ما أطعت الله، فإذا عصيته فلا طاعة لك علينا». فقال له: «وما معصيته؟». فقال: «تخليك عن دار ملكك ودار آبائك، وتركك أخاك وهو مجاهد عنك وعن دولتك لعدوك، فتظن عن مستترك وفى هذا عصيان الله عز وجل»^(٢).

وخرج ابن كنداج فقد قواد الخليفة وعاد به إلى سر من رأى، وهناك قابله أخوه الموفق فأنزله داراً خاصة، ووكل به قائداً فى خمسمائة رجل يمنعون أن يدخل إليه أحد.

(١) ابن الداية: ص ٦٨ - ٦٩.

(٢) انظر الكندى: ص ٢٢٥.

وقال ابن كنداج مكافأته وخلق عليه، ولقب بذي السيفين، وعقد له الموفق على مصر مكان أحمد بن طولون، وأقطع ضياع القواد الذين خرجوا مع المعتمد^(١).

وعلم ابن طولون - وهو في دمشق - بهذا كله، فثارت ثائرتة، فجمع الفقهاء والقضاء في دمشق في سنة ٢٦٩هـ واستفتاهم في خلق أبي أحمد الموفق، فأفتوا جميعاً بخلعه إلا قاضيه بكار بن قتيبة، فلم يلتفت إليه ابن طولون وكتب كتاب الخلع من عدة نسخ، وأرسله إلى كل عمل من أعماله ليتلى على المنابر^(٢)، وأمر كذلك بأن يمحي اسم الموفق من الطرز التي كتبت قبل ذلك ولا تكتب فيما يستأنف. فلم يبق بمصر ولا بنواحيها ثوب على طرازه اسم الموفق إلا نقض.

وبلغ الموفق ما فعله ابن طولون من إسقاط اسمه وترك الدعاء له، فأمر بلعنه على المنابر، «وخرجت براءة اللعنة إلى سائر الأمصار جميعاً»^(٣)، وكان مما لعن به «اللهم العنه لعناً يفلى حده، ويتعس جده، واجعله مثلاً للغابرين. إنك لا تصلح عمل المفسدين»^(٤).

ويبدو أن الموفق لم يكن يتوقع أن يصل العداء بينه وبين ابن طولون إلى هذا التقاطع والتناوب والتلاعن، ففكر في تحسين العلاقات بينه وبين ابن طولون ثانية. وندب لذلك كاتبه صاعد بن مخلد وجماعة من خاصته وأمرهم أن يكتبوا لابن طولون كتاباً يعاتبونه فيه على المبادرة بخلع الموفق وإسقاط اسمه من الخطبة، وذكروا له في الكتاب «أنه إنما كان يجب أن تفعل ذلك لورأيت بالخليفة حادثاً فأما ولم يجر إلا منع أمير المؤمنين من فعل شيء آثره، لو بلغه لعاد عليه وعلى مملكته ضرر، فذلك غير منكر يوجب ما تسرعت إليه»^(٥).

وقالوا له أيضاً على لسان الموفق: «وأنه قد كان يجب عليك أن تصون نفسك عن سوء الظن بنا في أننا نستجيز أن نحدث في أمير المؤمنين حادثة، نبرأ إلى الله الكريم منها.. وأن اللعن الذي خرج عن غير إرادة مني ولا محبة ولا اختيار، وإنى لكاره لما جرى من ذلك»^(٦).

ثم أشاروا على ابن طولون في نهاية الخطاب بأن يكتب للموفق بما يزيل من نفسه ما تركه العداء فيها من أثر فقالوا: «إن الأحسن بك والأجمل، لما خصك الله به من الفضل، والمحل الجليل، والمروءة المقرونة بالدين، أن تكتب إليه تذكر فيه ما أنت مؤثر له من طاعته، وما توجه

(١) البلوى: سيرة ابن طولون، ص ٢٩٢.

(٢) انظر نسخة الخلع في البلوى، ص ٢٩٥، ٢٩٧.

(٣) انظر نفس البراءة في البلوى، ص ٢٩٩.

(٤) الكندي: ص ٢٢٩.

(٥) البلوى: ص ٣٠٣.

(٦) البلوى: ص ٣٠٣.

من حقه ورعايته ، وما يشاكل ذلك مما أنت بجميل فعلك ووافر تحصيلك أهدي إليه إن شاء الله^(١)».

وتلقى أحمد بن طولون هذه الكتب ففرح بها ، لأنه علم أنها صدرت بأمر الموفق ، وأجاب عليه بقوله إن «الموفق أحد مواليه ، وأنه إنما انحرف عنه لحصره الخليفة ، وأسره إياه ، وأنه لو خلاه مع اختياره ، وأزال عنه الموانع التي ألزمه إياها ، ولم يحل بينه وبين أمره ونهيه ، وامتثل أمره على رسمه كان ، ولم ينحرف عن طاعته . ولا عدل عن محبته وإرادته ، لكل كبعض خدمه ، وأن جميع ما فى يده من مال عمله محفوظ للخليفة ، وإن أقام على ما هو عليه من حصره إياه فى يده وتوكيله به ، حاربت عنه ولو لم يبق معى أحد ، فبأنى أرجو أن أرزق الشهادة على حسن الطاعة^(٢)».

وسر الموفق بهذا الرد فقد وجد أن ابن طولون لم يقدم على فعلته إلا محافظة على ولائه للمعتمد ، وعلم أنه مستعد أن يعترف له بالولاء ثانية إن هو رفع الحصار عن الخليفة ، فأسرع ونقله إلى قصره ، وأزال الموكلين عليه ، ومنع التشديد فى المراقبة ، وكتب إليه يذكر أنه ما لعن ابن طولون إلا مضطراً ، وأنه لنادم على ما فعل ، ثم طلب من الخليفة المعتمد أخيراً أن يكتب إلى ابن طولون «بما يزول به ما بينهما»^(٣) . فرحب المعتمد بهذا الطلب وكتب إلى أحمد بن طولون كتاباً بخطه شكره فيه على حسن طاعته وتفانيه فى ولائه ، وذكر له ما فعله الموفق أخيراً من إطلاق سراحه وحسن معاملته ، وطلب منه أخيراً أن يعيد الدعوة للموفق على المنابر وإثبات اسمه على الطرز ، وأرسل الكتاب إلى ابن طولون مع رسول خاص ومعه خطاب الموفق بخطه إلى المعتمد ، وفيه يعترف بإسقاط اللعن عن أحمد بن طولون ، وسار الرسول فى طريقه ؛ ولكنه لم يكذب الرقة حتى وصلتته الأخبار بوفاة أحمد بن طولون ، فعاد ثانية إلى بغداد .

خمارويه والخلافة العباسية :

ولى خمارويه حكم مصر سنة ٢٧٠ هـ ، وفى نفس السنة أرسل جيشاً إلى الشام بقيادة أبى عبد الله أحمد بن محمد الواسطى ، ولم يكذب الواسطى يصل إلى فلسطين حتى فكر فى الخروج على خمارويه ، لأنه خشى أن يوقع به لأنه سبق أن أشار عليه بقتل أخيه العباس ، وكتب الواسطى كتاباً إلى أبى العباس أحمد المعتضد بن أبى الموفق ضمنه أبياتاً من الشعر وصغر له فيه أمر خمارويه وحضه على المسير إليه ، وخرج أبو العباس أحمد بن الموفق من بغداد ومعه جيشه وقواده واستولى فى طريقه على قنسرين وشيزر حتى وصل دمشق ودخلها ، وعلم خمارويه بما حدث ، فخرج من مصر فى جيش عظيم (فى صفر سنة ٢٧١ هـ) وتقابل الجيشان عند نهر

(١) البلوى : ص ٣٠٤ .

(٢) البلوى : ص ٣٠٥ .

أبى فطرس - فى فلسطين - فهزم جزء من جيش خمارويه كان يقوده هو بنفسه، فكر راجعاً إلى الفسطاط غير أن كمين الجيش المصرى خرج بقيادة سعد الأيسر وهم لا يعلمون بهزيمة خمارويه وفراره، وانقضوا على جيش أبى العباس حتى هزم وارتد إلى دمشق فلم تفتح له. وتقدم سعد الأيسر - مع الواسطى - فدخل دمشق ودعوا فيها لخمارويه.

وخرج خمارويه ثانية من الفسطاط فى ذى القعدة سنة ٢٧٢ هـ وتقدم حتى دخل دمشق فى المحرم سنة ٢٧٣ هـ، ثم تركها متتبعاً جيوش أبى العباس بن الموفق حتى هزمها، وبلغت أوائل جيشه سر من رأى.

وفى ذلك الحين سفر قوم بين خمارويه وبين إسحاق بن كنداج قائد أبى العباس، فاصطلحا وتصاهرا، وانضم إسحاق إلى خمارويه.

ثم كاتب خمارويه أبى أحمد الموفق، وسأله الصلح على مال يبذله له، فوافق أبو أحمد الموفق. وقدم رسول الموفق بشروط الصلح إلى الفسطاط فى رجب سنة ٢٧٣ هـ، وأهم ما فيها اعتراف المعتمد وأبى أحمد الموفق وابنه أبى العباس - بخط أيديهم - بولاية خمارويه وولده على مصر والشامات لمدة ثلاثين سنة، فأمر خمارويه بإعادة الدعاء لأبى أحمد الموفق وترك الدعاء عليه^(١).

وفى سنة ٢٧٨ هـ مات أبو أحمد الموفق، فعقد بولاية العهد لابنه أبى العباس. وفى سنة ٢٧٩ هـ توفى الخليفة المعتمد وبويع بالخلافة أبو العباس بن أبى أحمد الموفق، ولقب بالمعتمد، فبعث إليه خمارويه بالهدايا، وفى شهر ربيع الأول سنة ٢٨٠ هـ وصل إلى مصر كتاب المعتمد بولاية خمارويه وولده ثلاثين سنة «من الفرات إلى برقة، وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال على أن يحمل فى كل عام من المال مائتى ألف دينار عن ما مضى، وثلاثمائة ألف عن كل عام للمستقبل»^(٢).

وفى شهر رمضان من نفس السنة وصل إلى مصر رسول المعتمد ومعه الخلع «وهى اثنتا عشرة خلعة وسيف وتاج ووشاح».

وفى السنة التالية (٢٨١ هـ) عقد للخليفة المعتمد^(٣) على قطر الندى بنت خمارويه، فحملها إليه مع أبى عبد الله بن الجصاص «وحمل معها ما لم ير مثله ولا سمع به، منه دكة أربع قطع ذهب، عليها قبة ذهب مشبكة، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من الجواهر لا يعرف لها قيمة»^(٤).

(١) انظر الكندى: ص ٢٣٨.

(٢) الكندى: ص ٢٤٠.

(٣) ذكر أبو المحاسن: النجوم ٣٠/ ٥٣، أن خمارويه عرض على المعتمد أن يزوج ابنته قطر الندى من ابنه المكتفى بالله، فطلبها المعتمد لنفسه وقال: «بل أنا أتزوجها».

(٤) ابن دقماق ٤/ ٦٧.

ويبدو أن الخلافة العباسية عندما يئست من إخضاع دولة بنى طولون بالقوة لجأت إلى إضعافها بالسياسة، فإنه يقال إن المعتضد أراد بزواجه من قطر الندى «أن يفقرأ بأها خمارويه فى جهازها»^(١)، يقول أبو المحاسن: «وكذا وقع، فإنه جهازها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف، حتى قيل: إنه دخل معها فى جملة جهازها ألف هاون من الذهب»^(٢). كذلك أمر خمارويه - بعد أن فرغ من جهاز ابنته أن يبني لها على رأس كل منزلة تنزل فيها قصر فيما بين مصر وبغداد . . . فكانت إذا وافت المنزلة وجدت قصرًا قد فرش، فيه جميع ما تحتاج إليه، وقد علقت فيه الستور، وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها، وكانت فى مسيرها من مصر إلى بغداد، على بعد الشقة، كأنها فى قصر أبيها»^(٣). ثم ولى على مصر أبو العساكر جيش بن خماروه بعد موت أبيه فى سنة ٢٨٢هـ. غير أنه لم يلبث أن وثب بعمة نصر بن أحمد بن طولون فقتله، فاجتمع قواد جيشه وخلعوه انتقامًا لعمة، وبايعوا أخاه هارون بن خمارويه، وبهذا لم يمكث أبو العساكر فى الولاية إلا تسعة أشهر، وقد أودع السجن بعد خلعته فمات به بعد أيام.

وفى سنة ٢٨٨هـ مات الخليفة المعتضد، وبويع بالخلافة بعده ابنه أبو محمد، ولقب بالمكتفى بالله، وفى عهده ساءت العلاقات بينه وبين هارون، فأرسل المكتفى جيشًا إلى مصر بقيادة محمد بن سليمان الكاتب، كما أمر دميانه - أمير البحر بفتح الشام - أن يسير بسفنه إلى مصر. وتقدم محمد بن سليمان حتى نزل حمص، فكتب إليه بدر الحمami - والى هارون على الشام - بالسمع والطاعة، ثم واصل محمد بن سليمان سيره إلى فلسطين، فتقدم إليه وصيف بن صوارتكين بالسمع والطاعة أيضًا.

وصلت هذه الأخبار إلى مصر، فأخذ هارون يعد العدة لملاقاة عدوه، وأرسل أسطوله لقتال الأسطول العباسى عند تنيس، غير أن الأسطول العباسى انتصر، واستولى على تنيس ودمياط، وتقدمت سفنه فى النيل متجهة نحو القسطنطينية.

وشغل هارون باللهو والطرب، وتفرق عنه نفر من جنده، فأجمع عماء شيبان وعدى ابنا أحمد بن طولون على قتله، وقتلاه فى صفر من سنة ٢٩٢هـ، وبايع الجند شيبان بالولاية. فاسر إلى القسطنطينية وبدأ يجمع جيشه ويستعد لملاقاة الجيش العباسى، غير أنه لم يلبث أن علم بتفرق كبار قواده عنه وانضمامهم إلى محمد بن سليمان، كما علم أيضًا بوصول الأسطول العباسى

(١) النجوم الزاهرة ٣/ ٥٣.

(٢) النجوم الزاهرة ٣/ ٥٣.

(٣) النجوم ٣/ ٦٢ - ٦٣.

إلى ساحل الفسطاط، فأرسل هو أيضاً إلى محمد بن سليمان يطلب منه الأمان لنفسه وأخوته وأهله، فأمنهم.

ودخل محمد بن سليمان الفسطاط فى ربيع الأول من سنة ٢٩٢ هـ، وأمر بإحراق القطائع فأحرقت، ودعى على المنابر للخليفة المكتفى بالله وحده، ثم «أخرج . . . قواد بنى طولون ومواليهم وقتاً بعد وقت فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر . . .»^(١).

وهكذا فشلت المحاولة الأولى للاستقلال بمصر بعد أن ظل النزاع شديداً بين الخلافة العباسية وولاة مصر من الطولونيين طول عهد هذه الأسرة، وعادت مصر ولاية تابعة للخلافة مرة أخرى، وولى محمد بن سليمان على خراجها أبا على الحسين بن أحمد المادراتى، وولى على صلاتها عيسى النوشرى.

٧ - الأخشيد والخلافة :

فى سنة ٣٢٣ هـ ولى مصر محمد بن طغج الإخشيد، وكان قائداً شجاعاً طموحاً، فاتخذ لنفسه جيشاً قوياً بلغت عدته أربعمائة ألف جندى، عدا حرسه الخاص، وكان يبلغ عددهم ثمانية آلاف مملوك، ثم أنشأ فى سنة ٣٢٥ هـ داراً للصناعة بساحل الفسطاط بنى فيها سفناً كثيرة، وانتهز الإخشيد فرصة ضعف الخلافة العباسية واستقل بمصر داخلياً، ولم يبق بين مصر والخلافة فى عهده غير العلاقات الاسمية من خطبة باسم الخليفة، وسكة تضرب باسمه أيضاً، ومال يرسل إليه سنوياً. وفى سنة ٣٣١ هـ أخذ الإخشيد البيعة على المصريين وجميع القواد والجنود لابنه أبى القاسم أنوجور. وكانت الخلافة العباسية وقتذاك قد ضعف ضعفاً شديداً. وانفصل كثير من الولاة بالأطراف واستقلوا بها، وكان أقوى هؤلاء الولاة وأحسنهم علاقة بالخلافة العباسية محمد بن طغج الإخشيد، فوجد أن الجفاء يشتد فى سنة ٣٣٢ هـ بين الخليفة المتقى وبين الحمدانيين حكام الموصل من ناحية، وبينه وبين قائديه توزون والبريدى من ناحية أخرى. فكتب الخليفة إلى الإخشيد يستنجد به ويستدعيه إليه، ثم خرج للقائه فى الشام.

وغادر الإخشيد مصر بعد أن استخلف عليها أخاه الحسن بن طغج، وسار حتى التقى بالخليفة فى مدينة الرقة، وأهدى إليه تحفاً وهدايا وأموالاً، وكان الخليفة عندما اشتد الخلاف بينه وبين الحمدانيين أرسل إلى توزون مستنجداً أيضاً؛ فلما تقابل الإخشيد مع الخليفة قال

(١) الكندى: ص ٢٤٨.

له : «يا أمير المؤمنين : أنا عبدك وابن عبدك ، وقد عرفت الأتراك وغدرهم وفجورهم ، فالله فى نفسك ، سر معى إلى الشام ومصر فهى لك ، ونأمن على نفسك ، فلم يقبل المتقى ذلك ، فقال له الأخشيد ، فأقم هنا وأنا أمدك بالأموال والرجال ، فلم يقبل منه أيضاً»^(١).

وعاد الإخشيد إلى مصر ، غير أنه لم يلبث أن وصلتة الأخبار أن توزون ثار بالخليفة وخلعه وسمل عينيه ، وولى الخلافة من بعده المستكفى سنة ٣٣٣ هـ ، ويقال إن الخليفة القاهر - وكان قد خلع وسملت عيناه - عندما علم بما حدث للمتقى قال : «صرنا اثنين ونحتاج إلى ثالث»^(٢) - يعرض بالمستكفى الخليفة الجديد - ، وقد صدقت نبوءته فعلاً .

وهكذا فشلت أيضاً المحاولة الثانية لنقل الخلافة العباسية إلى مصر .

(١) أبو المحاسن ٣ / ٢٥٥ ، انظر أيضاً : منز ١ / ٢١ .

(٢) أبو المحاسن ٣ / ٢٨٢ .

نظم الحكم ودواوينه فى الفسطاط

١ - نظام الإمارة

كان العرب يحيون فى بلادهم حياة قبلية، فلما فتحوا البلدان المجاورة - ومنها مصر - وجدوا بها حضارة ونظماً للحكم معقدة، فتركوا هذه النظم على ما كانت عليه. وقنعوا بالرئاسة الحربية والدينية أول الأمر.

ثم لم يلبث العرب بعد اختلاطهم بسكان هذه البلدان، وبعد انتشار الدين الإسلامى واللغة العربية، أن تقبلوا هذه النظم، وتولوا هم جميع أمور هذه الدولة.

وقد تولى أمور الحكم فى هذه الولايات القواد الذين افتتحوا، ثم خلفهم بعد ذلك أمراء أو ولاة آخرون، وبذلك كان أول وال على مصر هو عمرو بن العاص، وكان عمرو حاكماً قديراً وإدارياً ماهراً، كما كان قائداً شجاعاً فذاً، ومن آثاره الهامة فى مصر مدينة الفسطاط، وجامعه الذى بناه بها، وتجديده للترعة القديمة التى كانت تصل النيل ببحر القلزم وسماها خليج أمير المؤمنين، كذلك عنى عمرو بإصلاح وسائل الرى فى مصر، وكانت قد أهملت وأصابها الفساد فى آخر عهد البيزنطيين. «ويقال إن عمرو بن العاص كان يسخر أكثر من مائة ألف عامل فى كرى الخلجان والترع وتطهيرها»^(١).

وكان الأمير أو الوالى أو العامل على مصر يولى من قبل الخليفة على صلاتها وخراجها^(٢) وكانت تجتمع له - فى أول الأمر - السلطات كلها، فهو قائد الجند، وهو الإمام الذى يؤم الناس فى الصلاة، وهو المشرف على شئون مصر المالية وجامع خراجها، وهو القاضى الذى يفصل فى الخصومات: وقد بحث الفقهاء والمؤرخون نظام الإمارة أو الولاية فيما بعد، وكتبوا له مواد، وقسموه إلى إمارة عامة وإمارة خاصة، ثم جعلوا الإمارة العامة قسمين: إمارة عن اختيار وإمارة عن اضطرار.

وقد وضع الماوردى اختصاص الإمارة عن اختيار فى سبع مواد هى:

١ - النظر فى تدبير الجيوش، وترتيب النواحي، وتقدير أرزاقهم.

(١) مصر الإسلامية فى العصور الوسطى لإسماعيل أبو العينين، مقال من كتاب فى مصر الإسلامية، مطبعة المقتطف سنة ١٩٣٧م، ص ٩.

(٢) كان اصطلاح العصر دائماً أن يقال عند الكلام عن الولاية ولى على مصر: صلاتها وخراجها، وقد ورد فى الكندى، ص ٣٠١، هامش ٢ نقلاً عن ابن زولاق: «وولى عمرو بن العاص: حربها وخراجها»، وهى المرة الوحيدة التى قرأت فيها هذا الاصطلاح فيما أذكر.

٢ - النظر فى الأحكام وتقليد القضاة والحكام.

٣ - جباية الخراج، وقبض الصدقات، وتقليد العمال فيهما، وتفريق ما استحق منهما.

٤ - حماية الدين، والذب عن الحريم، ومراعاة الدين من تغيير وتبديل.

٥ - إقامة الحدود فى الله وحقوق الآدميين.

٦ - الإمامة فى الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها.

٧ - تسيير الحجيج من عمله.

فإن كان هذا الإقليم ثغراً متاخماً للعدو اقترن بها ثامن، وهو جهاد من يليه من الأعداء، وقسم غنائمهم فى المقاتلة، وأخذ خمسها لأهل الخمس^(١).

أما الأمير فى الإمارة الخاصة فيكون «مقصور الإمارة على تدبير الجيش وسياسة الرعية، وحماية البيعة والذب عن الحريم، وليس له أن يتعرض للقضاء والأحكام ولجباية الخراج والصدقات».

وهكذا نلاحظ أن ولاية عمرو لمصر كانت فى السنين الأولى ولاية عامة، فكانت بيده السلطات جميعاً، غير أن عمر لم يلبث أن عين عبد الله بن سعد بن أبى السرح على خراج مصر، فأصبحت ولاية عمرو ولاية خاصة، وبعد قليل أيضاً عين الخليفة قاضياً للحكم بين الناس، فلم يبق للوالى على مصر غير قيادة الجيش وإمامة الصلاة، والإشراف على الشرطة.

وكان الولاية على مصر منذ الفتح حتى بدأ العهد الطولونى يلون على مصر صلاتها وخراجها. وبذلك تكون السلطة كلها فى أيديهم، يتمتعون بنفوذ كبير واسع المدى. أو يلى الوالى على صلاتها فقط، وإلى جانبه وال آخر على خراجها، فينشأ بذلك النزاع^(٢) وتقوم المنافسة بين الرجلين وقد يكون هذا هو السبب فى قصر مدة الولاية وعمال الخراج فى هذه المدة.

وكانت الصلاة أبرز أعمال الوالى وأهمها لاتصالها برسالة الإسلام التى ترمى إلى نشر هذا الدين الجديد، وكان أهم واجبات الوالى أن يؤم الناس فى الجمع وفى الصلوات الجامعة، وأن يستخلف الأئمة ليأموأ الناس فى المساجد الجامعة الأخرى عندما انتشر الإسلام فى مصر وكثر عدد المسلمين، وقد ظل الولاية فى مصر يأمون الناس فى الصلاة فى عهود الخلفاء الراشدين والأمويين، وفى الصدر الأول من الدولة العباسية^(٣) حتى ولى مصر ولاة من غير العرب لا يجيدون العربية، فأتابوا عنهم أئمة للصلة بالناس، وقد ولى مصر ولاة من العرب كان آخرهم

(١) الأحكام السلطانية، ص ٢٨ - ٢٩.

(٢) انظر مثلاً للنزاع بين الوالى وصاحب الخراج فى الكندى، ص ٧٥.

(٣) حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص ٢٠٨.

الباب السادس
نظم الحكم ودواوينه فى الفسطاط

- ١- نظام الإمارة
- ٢- دور الإمارة فى مصر (الفسطاط)

obeikandi.com

عنبسة بن إسحاق (٢٣٨هـ - ٢٤١هـ) من قبل الخليفة المنتصر، ثم ولي مصر بعد ذلك ولاية من الأتراك كانوا كلهم جفاة غلاظاً ساء حال البلاد في عهدهم، وكثرت الفتن وانتشرت القوضى، حتى ولي مصر أحمد بن طولون فاستقل بأمورها، وأنقذها من هذا الخلل والاضطراب.

وكان والى الصلاة هو الذى يولى صاحب الشرطة^(١) من قبله، كما كان يحدث أحياناً أن يحتفظ الوالى بالشرطة لنفسه، كما فعل عبد الله بن عبد الرحمن بن حديج (١٥٢هـ - ١٥٥هـ) عندما ولي من قبل أبى جعفر المنصور، فإنه لم يول على الشرطة أحدًا^(٢).

كذلك كان الوالى إذا خرج لمقر الخلافة، أو للحج، أو إلى ثغر من ثغور الساحل، كالإسكندرية ودمياط وورشيد، استخلف على مصر، أو على العاصمة - الفسطاط - نائباً عنه^(٣).

وكان يحدث أحياناً عند وفاة خليفة وتولية آخر أن يخرج إلى مصر أو وفد منها لمبايعة الخليفة الجديد بالنيابة عن أهل مصر، كما خرج عبد الملك بن رفاعة إلى مصر فى سنة ٩٦هـ لمبايعة الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك^(٤)، وكما خرج وفد من عرب مصر فى سنة ١٢٦هـ لمبايعة الخليفة يزيد بن الوليد^(٥)، كذلك أرسل صالح بن على - والى مصر - وفداً من أهلها فى سنة ١٣٣هـ لمبايعة الخليفة العباسى الأول أبى العباس السفاح^(٦).

وكان ينتقل إلى مصر فى بعض الأوقات ليلى إفريقية، كما حدث فى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك، إذ أرسل إلى مصر حنظلة بن صفوان (فى ولايته الثانية: ١١٩هـ - ١٢٤هـ) كتاباً بتوليته على أفريقية «وأمره بالمسير إليها، وأن يستخلف على مصر، فاستخلف حفص بن الوليد الحضرمى»^(٧) وقد أقر هشام حفصاً على ولايته.

وبعد أن انتصر صالح بن على العباسى على مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية وقتله، أتاه خطاب أبى العباس السفاح بتوليته على مصر^(٨)، وفلسطين وأفريقية جميعاً، ثم أتاه

(١) انظر أوائل الكلام عن الولاة جميعاً فى الكندى وخاصة ص ٨٥ - ٩٣.

(٢) الكندى، ص ١١٧ - ١١٨.

(٣) كان إذا خرج عن مصر استخلف على مصر كلها، وإذا خرج إلى أحد الثغور استخلف على العاصمة، أو على شرطة الفسطاط، أو على الجند. انظر الكندى ص: ٦٤ و ٦٥ و ٧١ و ٧٤ و ٩٣ و ١٠١ و ١١٨ و ١٢١، وحدث مرة واحدة أن استخلف الوالى خليفين: أحدهما على الجند، والثانى على الخراج، انظر الكندى، ص ١٠٨.

(٤) الكندى، ص ٦٦.

(٥) الكندى، ص ٨٤.

(٦) الكندى، ص ٩٧.

(٧) الكندى، ص ٨٢.

(٨) الكندى، ص ١٠٠ - ١٠٢.

خطاب آخر بأن يسير إلى فلسطين ليلى أمرها وأن يستخلف على مصر، فاستخلف عليها
أباغون عبد الملك بن يزيد فى مستهل شعبان سنة ١٣٣ هـ.

وفى سنة ١٤٨ هـ ضم يزيد بن حاتم - والى مصر من قبل أبى جعفر المنصور - برقة إلى
مصر، «وهو أول من ضمها إليه، وأقر عليها عبد السلام بن عبد الله بن هبيرة
الشيبانى»^(١).

وكان الوالى على مصر يعين من قبله واليين: أحدهما على الصعيد، والثانى على أسفل
الأرض^(٢).

(١) الكندى، ص ١١٦.

(٢) الكندى، ص ٨٤.

٢ - دور الإمارة فى مصر (الفسطاط)

لم يكن لأمرء مصر فى العهد الأول دار خاصة للإمارة، بل بنى عمرو بن العاص داره الكبرى فى الفسطاط شرقى المسجد الجامع، وفيها كان سكنه، وكانت تلاصقها دار عمرو الصغرى سكن ابنه عبد الله، وهكذا كان ينزل كل أمير يلى مصر دارا خاصة به يكون فيها سكنه ومقر حكمه، وإن كان ابن دقماق يذكر أن معاوية كان قد بنى قبلى المسجد الجامع فى الفسطاط داراً لابنه يزيد اسمها «دار الرمل»، «وكانت الولاية تنزلها»^(١).

فلما كانت فتنة ابن الزبير، ودخل مروان بن الحكم مصر فى سنة ٦٥ هـ أمر ببناء دار خاصة له فى الفسطاط، فبنيت فى شهرين، ويقال فى أربعين يوماً، وسمها «الدار البيضاء»^(٢).

وفى سنة ٦٧ هـ بنى عبد العزيز بن مروان - والى مصر من قبل أخيه عبد الملك بن مروان داراً عظيمة وسمها «دار الذهب»، وجعل لها قبة مذهبة «إذا طلعت عليها الشمس لا يستطيع الناظر التأمل فيها خوفاً على بصره، وكانت تعرف بالمدينة لسعتها وعظمتها»^(٣)، وسكن هذه الدار عبد العزيز، ثم سكنها بنوه من بعده، حتى أتى إلى مصر مروان بن محمد فنزلها، فلما اشتد به الخطر أمر بإحراقها، فلامه فى ذلك بعض رجاله، فقال: «إن أبق ابنها لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وإلا فما تصاب به فى نفسك أعظم . . .»^(٤).

وعندما أنشأ صالح بن على مدينة العسكر بنى فيها داراً خاصة سماها «دار الإمارة»، وظل ولاة مصر - من قبل العباسيين - ينزلونها حتى نزلها أحمد بن طولون^(٥). فلما بنى مدينة القطائع أنشأ فيها دار إمارة جديدة فى الجهة القبلىة من مسجده الجامع، وكان لها باب يصلها بالمسجد عند المقصورة بجوار المحراب والمنبر، وظلت هذه الدار قائمة^(٦) يسكنها

(١) ابن دقماق: ٥ / ٤.

(٢) الكندى، ص ٤٥.

(٣) صبح الأعشى ٣ / ٣٣١.

(٤) الكندى، ص ٩٥، وصبح الأعشى ٣ / ٣٣١.

(٥) ابن دقماق ٤ / ١٠.

(٦) يقول صاحب صبح الأعشى ٣ / ٣٣٢ إن محمد بن سليمان خرب هذه الدار كما خرب القطائع كلها، ولكن المقرئى يقول فى الخطط ٤ / ٤٢ إن هذه الدار ظلت باقية حتى أتى المعز الفاطمى فجعلها ديواناً للخراج «فكان يستخرج فيها أموال الخراج».

بنو طولون إلى أن أتى محمد بن سليمان إلى مصر سنة ٢٩٢ هـ، وقضى على دولة الطولونيين، وخرّب القنّاع، فنزل في الفسطاط في دار كانت تسمى «الدار العظمى»^(١)، وظلت هذه الدار سكناً لولاة مصر من بعده، إلى أن ولي محمد بن طنج الإخشيد فنزلها، ثم ضاقت عليه «فزاد فيها وعظّمها، وعمل لها ميداناً، وجعل له باباً من حديد، وذلك في سنة ٣٣١هـ»^(٢)، ولبثت مقرّاً لولاة مصر طول عهد الإخشيديين حتى أتى الفاطميون فسكنوا في القصر الكبير في القاهرة.

(١) بقيت هذه الدار عند المصلّى القديم بدر الخفيفي غلام أحمد بن طولون، ثم سكنها بعده طاهر بن خنارويه، ومن بعده حمامي غلام أحمد بن طولون، انظر ابن دقماق ٤/ ١٠، وصبح الأعشى ٣/ ٣٣٢.

(٢) صبح الأعشى ٣/ ٣٣٢.